روايات مصرية للجيب

29

أسطورة الجاثوم

ما وراء الطبيعة

مقدمة

الآن وقد جاء المساء ، وأوت الشمس منهكة إلى فراشها بانتظار يوم جديد يكون عليها فيه أن تبدد الخوف وتنشر الأمل والدفء في النفوس ..

الآن فقط يمكننا أن نستكمل القصة التي بدأناها في الكتيب السابق والتي سنقرأ ملخصًا رديئًا لها في الصفحات القليلة القادمة ، كما هي عادتي في القصص عديدة الأجزاء ...

وأنا أتعشم أن يكون ملخصًا رديئًا حقًا ، لأن المقياس الصحيح للعمل الأدبي الجيد هو ألا يمكن تلخيصه .. فلو استطعت تلخيص رواية ما ، في بضعة سطور ، لكان هذا دليلاً على رداءتها ، واندراجها تحت ما يسمى بالقصة الخبرية ، وهي أحط أنواع القصص ..

ولكن دعونا من عالم النقد الأدبي قليلاً .. ولنعد إلى سياق قصتنا التي أتعشم ألا تكونوا قد أضعتم جزءها الأول .. إن عادة وضع الكتاب فوق جهاز التليفزيون لعادة ذميمة نهيتكم عنها مرارًا دون جدوى .. فالكتاب يضيع دائمًا بهذه الطريقة ولا تجده أبدًا ..

سأستكمل خطاب (هـ) الطويل هذا ...

بعد ذلك تنتهي سلسلة الأعداد التي تتحدث عن تجارب الآخرين ، وأعود لكم أنا (رفعت إسماعيل) من جديد ، آملاً في أن يكون بينكم واحد ـ مجرد واحد ـ قد افتقدني ..

إن العرب يقولون (زُرْ غبًا تزدد حبًا) .. أي زُرْ الناس على فترات متباعدة كي يحبوك ولا يملوك ..

وهذا هو ما أفعله الآن ....

ستبدأ قصة الجاثوم فخذوا مقاعدكم .. اربطوا الأحزمة .. وكفوا عن التدخين .. ولا بأس بشهيق عميق لمزيد من الاسترخاء ...

إن مطار ما وراء الطبيعة ينتظر طائرتنا في شغف ..

* * *

١ - محتوى الكتاب الذي أضعتموه ..

هذا خطاب جديد من شخص يدعى (هـ) .. وهو مدرس في الثلاثين من عمره .. متزوج ولم ينجب .. مصري الجنسية ..

من السطور الأولى ندرك أنه شخص هجومي مستفزّ نوعًا ، ويصب سيلاً عدوانيًا على أم رأسي دون سبب ..

ويزعم (هـ) أن ذكاءه هو السبب الذي جعله يمقت الآخرين ويملّ غباءهم .. وأنا لست ذكيًا ، لكني أفهم ما يتكلم عنه ..

ومشكلته فريدة من نوعها حقًا ..

المشكلة هي سلسلة من الكوابيس تطارده في آخر الليل ، أو ـ كما قال هو ـ في ساعة الذئب ، أي الساعة التي يكون المرء فيها في أوهن حالاته البدنية والعقلية ..

الكوابيس تدور كلها حول مطاردة في قصر بينه وبين كائن مريع لا يستطيع وصفه بدقة ...

لكن الكابوس ينتهى فى لحظة المواجهة الأخيرة .. وينهض صارخًا من النوم ، ليجد فى كل مرة جسمًا من مخلفات الكابوس فى فراشه .. مشعلاً أو مفتاحًا أو قطعة عظم ..

بدأ (هـ) يشعر بأنه يُقاد إلى الجنون ، ويستشير أحد أطباء النفس ـ وهو الدكتور (م . ن) ذائع الصيت ـ لكن الطبيب يجد أن ما يعانيه (هـ) هو داء المشى فى أثناء النوم ، كنتيجة حتمية لعجزه عن الإنجاب ، وهو الرأى الذى يجده (هـ) سخيفًا ..

ويجرى (هـ) تجربة رصينة للتأكد من أنه حقًا لا يمشى فى أثناء النوم ..

فيضع المقاعد حول الفراش ، ويستوثق من أنه لا يحمل معه إلى الفراش أجسامًا ما ..

لكن التجربة تتكرر ، ويصحو من النوم ليجد عظمة ـ من الكابوس ـ جواره فى الفراش ...

إن الكابوس قد بدأ يتخذ منعطفًا خطرًا ؛ ألا وهو المواجهة بين (هـ) و(النكرومانسر) .. أى الشخص الذى يمزق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم ..

وبالتدريج راحت الكوابيس الليلية المتكررة تؤثر على (هـ) الذى ازداد عصبية وتوترًا ، وصار أكثر قابلية للشجار ، سواء فى المقهى الذى يحاول قضاء الليل ساهرًا فيه حتى لا ينام ثانية ، أو فى العمل ، أو مع شقيق زوجته الذى يحاول التدخل السافر فى حياته ..

لقد تخلت الزوجة عنه خشية على نفسها من كل هذا الخبال ..

ولم يعد أمامه سوى المزيد من الكوابيس ..

مطاردات بينه وبين الوحش ـ عرفنا أن اسمه الجاثوم ـ تقود إلى حافة هاوية تتدلى من سقفها عشرات الهياكل العظمية ، وفى قاعها تلتهب الحمم ، ويحاول (هـ) الدفاع عن نفسه بأن يصحب معه منشارًا كهربيًا فى الحلم .. وبهذا يتمكن من بتر يد الجاثوم التى تمسك بكاحله ..

وفيما بعد نعرف أن (هـ) وجد يد الجاثوم فى فراشه حين صحا صباحًا !

* * *

إن تغيير المكان قد يكون حلاً ناجحاً للعلاج ..

ويرتحل (هـ) فى إجازة قصيرة إلى الإسكندرية - إسكندرية الشتاء باهرة الحسن - ليقيم فى بنسيون مدام (إيرينى) اليونانية العجوز ..

ويدخل السينما ليرى فيلماً يسلى به وحدته التى بدأت تنهشه بأنيابها ، فيتعرف بالصدفة فتاة تدعى (إيناس) تجلس بجواره ..

كلا .. هى ليست حسناء .. لكنها لطيفة المعشر مثقفة متحضرة إلى حدٍ كبير .. تثير فيه الإحساس بصديق لا بأنثى ..

مدرسة هى من الإسكندرية .. مطلقة .. فى الثلاثين من عمرها ، وقد خرجت من تجربة فاشلة وقد أزمعت أن تكون أقوى وأصلد .. وهى تعيش مع ثلاث فتيات فى شقة بالإسكندرية بعيداً عن أسرتها ، وإن احتفظت بتقاليدها وتربيتها ..

لقد تبدلت حياة (هـ) .. إن أياماً باسمة تنتظره ها هنا ..

لكن الكوابيس لم تتوقف .. وهو ذا يرى حشداً من

المطاردات بينه وبين الجاثوم خارج القصر هذه المرة .. ومطاردات فى حقول القمح ، تنتهى فى كل مرة بمأزق لا فكاك منه .

وهنا تجىء (إيناس) بعرض خاص .. رحلة إلى عزبة تمتلكها صديقة ثرية لها ، تدعى (مها) .. والرحلة تضم (إيناس) و (هـ) و (محيى) الشاب المتظرف وخطيبته (غادة) .. و (سيد الشمندورى) وزوجته (هويدا) - خطيبتى السابقة - و (مها) وخطيبها (عبد الرحيم) ..

ويقبل (هـ) لأنه لا يجد شيئاً أفضل يفعله ..

إن العزبة جميلة حقاً .. وبها قصر جدير بالملوك ..

لكن الحقيقة المروعة التى تصدم (هـ) هى أن هذا هو القصر الذى يراه فى كوابيس كل ليلة .. وحقول القمح هذه هى ذات الحقول !

الشمعدان الفضى .. اللوحة الجدارية .. الستار الأحمر ..

ويحاول (هـ) فتح الباب المغلق الذى فتحه فى كوابيسه ، لكنه لا يجد فرصة للانفراد أبداً .. ويضطر

لترك الباب مغلقًا لكن قفله مفتوح ، وثمة ما يدعوه للشعور بأن شيئًا ما غادر الحجرة .. شيئًا لا يحب المرء أن يراه أبدًا ..

كان الكل يمرحون فى العزبة .. حين حاول (هـ) أن يجرب الرواق المظلم إلى اليمين .. فالكوة التى فى نهايته ـ الكوة التى تقود إلى وكر (النكرومانسر) ـ ويجتازها ..

ثمة ما يوحى بأن (النكرومانسر) كان هنا حقًا ..

ويحاول (هـ) الخروج من الكوة ، لكنه يشعر بأن قبضة قوية تمسك كاحله !

وبعد صراع عنيف يعبر الفجوة ... ويفرّ عائدًا إلى رفاقه ...

وينهى (هـ) الجزء الأول بتساؤلات ميتافزيقية مريرة :

ـ هل هو حقًا يمشى فى أثناء النوم ، وزار هذا القصر مرارًا وهو غافٍ ؟

ـ هل عاش فى هذا القصر يومًا فى الماضى ، ثم نسى أمره ؟

ـ ما هو الجاثوم ؟

ـ لماذا انفتح باب الحجرة التى لم يحسن غلقها ؟

ـ لماذا هذا القصر بالذات ؟

من المفترض أننا سنعرف الجواب فى هذا الجزء بالذات . وإلا كان كل هذا مستفزًا ..

دعنا نكمل الخطاب معًا إذن ...

* * *

٢ - فلتمر الساعات ..

كنت أرتجف رعبًا ..

أرتجف توجسًا ..

أرتجف اشمئزازًا ...

وشعرت بحيرة غير عادية .. مرة أوقن أن ما أمر به هو كابوس آخر لن يلبث أن يوقظني منه رنين المنبه ، ومرة أستدرك نفسي وأقول : إن هذا حقيقي تمامًا .. فأنا لم أعبر بعد الثغرة الفاصلة ما بين الوهم والحقيقة ..

أنا لا أحب هذا المكان ..

وسأكون أكثر رضًا لو غادرته على الفور ..

لكني مكثت فيه لم أبرحه ، لأني مرتبط بالآخرين .. ولأني كالإنسان الذي رأى عقربًا للمرة الأولى في حياته .. وبرغم الإحساس بالخطر الداهم ، لم يستطع أن يفرّ مبتعدًا عن هذه الأعجوبة .. إن الفضول يخنقه كي يتعلم أكثر .. الجوع السرمدي إلى الحكمة ..

إن الحقيقة التي لم تبرح ذهني ، هي أنني رأيت كل تفاصيل هذا المكان في كوابيسي السابقة ..

* * *

كان ضوء الغروب يغمر الموجودات بتلك المسحة الزرقاء الباردة غامرة الحزن ، وقد وقفت أرمق هذا مبلبل الفكر ..

حين دنت (إيناس) لتقف إلى جواري .. واحترمت صمتي برهة ... ثم لم تلبث أن تساءلت ، وهي ترنو لما أرنو إليه :

ـ « هل أحببت زوجتك ؟ »

سؤال غريب .. وإجابة أغرب بالتأكيد ..

قلت لها في كياسة :

ـ « لا أدري .. قليلون هم الرجال الذين يتساءلون عمّا إذا كانوا يحبون زوجاتهم .. إنهنّ موجودات وهذا كاف .. ولا يمكنني أن أرى زوجتي دون أن يحاصرها نسيج من ذكريات الكفاح المشترك والحزن المشترك .. »

ـ « أنت تتحدث عن التعوّد والألفة .. لا عن الحبّ .. »

قلت في ملل :

- « ربما .. لكنى - دون فلسفة لا طائل منها - أحب وجودها بقربى .. ولا أشعر بارتياح كثير لرحيلها .. »

- « وأنا ؟ »

- « أنتِ ؟ أنتِ صديقتى ! »

هنا سمعنا من ينادينا للعشاء .....

وكما حدث فى الغداء ؛ سيخلد تاريخ هذا اليوم لدى نحل العسل .. ولدى الأبقار الحلوب .. ولدى الدجاج البيّاض .. باعتباره يوم التضحية الكبرى ...

كان (سيد الشمندورى) يكدّس الطعام بين شدقيه دون كلل ولا توقف .. وتكونت بطيختان صغيرتان حيث كان خدّاه .. حتى إننى رحت أتساءل فى هلع : متى وكيف سيبتلع كل هذا ؟

أما الأب - الثرى الريفى عدوّ التأميم - فقد جلس يبتسم ابتسامة فخورًا ، وهو يجيل عينيه بين تلك الحيتان ، التى تطعم من طعامه وتشرب من شرابه ..

لقمة أو اثنتان - لا أكثر - مدّ يده بوقار ليمسحهما فى طبق البيض المقلى ، ثم يرفعهما إلى فمه .. ويحرك شفتيه فى تؤدة ..

ثم إنه تنحنح ، وقال بذات الوقار وهو يضمّ عباءته على جسده :

- « لقد أسعدتمونا .. وكنت أرجو أن تظلوا معنا هذه الليلة .. لكنى بمشاغلكم عليم .. لهذا لن أثقل عليكم .. »

ونظر نظرة ذات معنى إلى سائق سيارة الأجرة الذى كان يلتهم الطعام معنا .. فسارع هذا يفتح قطعة كبيرة من فطيرة ويدسّ فيها بعض البيض والجبن ، ثم يطويها على شكل شطيرة .. وينهض كى يعدّ العربة ...

مالت (إيناس) على مسمعى لتهمس :

- « كان ككل يوم فى حياتك .. واحتفظت أنت بكآبتك العتيدة .. فلم تأكل ولم تمرح .. ماذا دهاك ؟ »

قلت لها وأنا أتنهد بعمق :

- « إن ذلك الشعور .. الشعور بأن المكان مألوف .. لن أتخلص منه أبدًا ما لم أبتعد .. »

ولم أصارحها بأن المكان ليس مألوفًا فحسب .. بل هو المكان ذاته بكل تفاصيله !

* * *

غريبًا كمتسول فى الأوبرا .. كئيبًا كـالخريف .. شارد الذهن كـ (أحمد شوقى) وهو يتلقى إلهـام قصائده فى (كرمة بن هانئ) ، هكذا اتخذت موضعى فى السيارة جوار السائق ..

كان يلهث متثاقل الأنفاس من فرط ضغط بطنـه الممتلئ على حجابه الحاجز .. وتجشأ ، فأفعمت أنفى للحظة أبخرة الفطير (المشلتت) والجبن القديم ...

واهتزت العربة إذ تكدس الباقون فيها فى نفس المقاعد السابقة تقريبًا .. وأطلق أحدهم دعابة سخيفة ، ضحك عليها أضعاف ضحك من سمعوها ...

وظهر شبح الأب ومعه خادمـان .. مدثريـن فى الظلام ، وهو يرفع يده مودعًا ..

عندها أغمضت عينى .. وهمست فى سرى :

ـ « وداعًا أيها (الجاثوم) .. لربما التقينا كثيرًا فيما بعد .. لكن هذا اللقاء سيكون دائمًا فى الحلم .. ولسوف يظل من حقى أن أصحو صارخًا أرتجف ، فأنجو منك .. »

كررررررروووووه ! كررررررك ! كرررررروه !

المحرك اللعين يأبى أن يستجيب ..

كرررروووه ! كررررررروه !

جذب السائق شهيقًا عميقًا ، وأطلق سبة صغيرة ـ وهى طريقة ناجحة لجعل المحرك يعمل ـ ثم واصل محاولة بعث الحياة فى الوحش الحديدى النائم .. لكن لا ...

ـ « (ننزل نزق ؟) »

سأله (محيى) متظرفًا حيث جلس على يمينى .. لكن السائق حاول من جديد إيلاج المفتاح دون جدوى ولم يرد ...

غادر مقعده متثاقلاً ، وفتح الغطاء الأمامى وراح يعبث هنا وهناك .. وأنا لا أفهم حرفًا فى ميكانيكا السيارات .. ولهذا لا أعرف سوى أنه سيعلن بعد الفحص أن العيب فى (الكبالن) أو (الفيوز) أو (الدفرانس) أو (الحنجهور) .. أى شىء .. المهم أن السيارة لن تتحرك ..

كنت أدرك هذا منذ اللحظة الأولى .. وأنتظره ...

إن القصر يريدنى هذه الليلة !

لقد سمعت نداءه ... وشعرت به فى كل عظمة من عظامى ، وكل عصب من أعصابى ..

أنا الرهينة التى يريد القصر الاحتفاظ بها ، مقابل

إطلاق سراح الباقين . إن لقاءنا اليوم هو لقاء صديقين قديمين .. ولن ينتهي بهذه البساطة أبدًا ...

وسمعت السائق يحدث مضيفنا .. ويشوح بيده .. ويشير إلى المحرك .. بالتأكيد يفسر له سبب عطب (الدفرانس) أو (الكبالن) أو (الحنجهور) أو أى شيء يعتقد أنه فسد ..

لا تضيعوا الوقت يا سادة .. إن سبب عطل السيارة هو (الجاثوم) ولا شيء سواه !

وسمعت أطرافًا من الحديث .. تحملها أنسام الليل إلى مسمعى ..

ـ « (الرادياتور) .. لم أعلم أن ..... »

ـ « سيارة أخرى ..... »

ـ « لا يوجد .. إصلاح .. ميكانيكى .. القطار يمرّ من هنا .. السابعة صباحًا .. آخر قطار قد .... »

ـ « مبيت .. الحل الأوحد .. »

مبيت ؟! يا للنهار الأسود ! مبيت ؟!

هل وصل الأمر إلى هذا الحدّ ؟

نظرت نحوهم فى ذعر ، وأدركت أن الأمر حقيقى .. هناك قضيب قطار يمرّ جوار العزبة ، ويتوقف القطار

ذاته لثوان تكفى لتسلقه من دون رصيف ، لكن هذا القطار لم يعد هنالك .. لن يمرّ قبل السابعة صباحًا ..

ورأيت الآخرين يغادرون السيارة ، وقد بدا الذعر على الفتيات ... وهتفت (غادة) فى هستيريا ، وهى تكوّر قبضتيها على خديها ، فيما يشبه (اللطم) :

ـ « مستحيل أن نبيت هنا .. إن (بابى) سيجن هلعًا ! »

تأملتها فى حنق .. من المستحيل أن يكون لهذه الفتاة (بابى) ولا (بابا) .. لا يمكن أن يكون لديها أكثر من (أبويا) ..

وهنا تدخلت (إيناس) بهلع مماثل :

ـ « إن هذا ببساطة مستحيل .. لابد أن هناك حلاً .. »

ـ « هناك حل .. » ـ قال السائق وهو يسترخى على مقدمة السيارة :

ـ « وهو أن تمشوا فى الظلام عبر الحقول المقفرة ، قاصدين (أبو حمص) .. إن الكلاب هنا ليست شرسة إلى هذا الحدّ .. فهى تكتفى بعضك فى مؤخرتك دون أن تقتلك .. »

قالت (مها) التى كانت أكثرنا هدوءًا . فهى تتحدث عن المبيت فى دار أبيها :

- « تعقلن يا بنات ولا داعى للبلاهة .. إن هى إلا ليلة تمرّ بـالطول أو بـالعرض .. وفى الصباح الباكر يعود الجميع .. إن قصر أبى ملىء بالحجرات ، وكلها مفروشة صالحة للمبيت .. »

صاحت (غادة) بنفس الهستيريا :

- « إن (بابى) سيذبحنى لو بتّ خارج الدار ليلة واحدة .. إننا صعايدة ولا نمزح فى هذه الأمور .. »

تأملتها فى مزيد من الغيظ .. من هو (بـابى) الصعيدى الذى يسمح لابنته بـالخروج فى نزهة مع فتاها بعيداً عن رقابته ؟ لو كان يعلم فتلك مصيبة .. أو كان لا يعلم فهى كارثة .. لست متزمتاً لكنى أمقت الادعاء .. إما أن تتحمل قرارها فى شجاعة مثل (إيناس) ، أو تظل فى كنف (بابى) ولا تتظاهر بالتحرر ..

صاحت (مها) فى صرامة معاتبة صديقتها :

- « نحن قوم محترمون ، يا (غادة) .. ولسوف يفهم أبوك هذا فوراً .. »

وهكذا .. أدركت فى هلع أننا حقاً سنبيت ها هنا .. يمكننى ألا أفعل .. يمكننى أن أصرّ على العودة راجلاً إلى (أبو حمص) .. لكن منظر الحقول

المظلمة وأدَ هذا القرار فى مهده .. ثم إن هذه الحقول صالحة تماماً لكابوس جديد .. أركض فيه و(الجاثوم) فى إثرى ..

العرق البارد يبلل جبينى ، وأمعائى تتقلص على ما فيها من لحم طيور وبيض وجبن وسمن ..

صوت الأب يقول فى وقار :

- « إن الهاتف ها هنا .. الهاتف الوحيد فى العزبة ..... »

- « حمداً لله ! يمكننا أن .... »

- « لكنه معطل منذ أسبوع ! »

لو كان هذا الهاتف الأحمق سليماً ؛ لاقترحت على الآخرين أن نستدعى أية سيارة .. ولو كانت سيارة بوليس النجدة ، أو الإسعاف ، أو نقل الموتى .. المهم أن نعود إلى الإسكندرية الليلة ..

لا أريد المبيت فى مصيدة الفئران هذه

وبخطوات جنائزية متثاقلة عدنا إلى القصر ..

القصر الذى يضحك فى تشفٍ وهو يرمقنى .. ولسان حاله يقول لى : أرأيت ؟ لا مفر هنالك .. أنت لى !



وبخطوات جنائزية متثاقلة عدنا إلى القصر ..
القصر الذى يضحك فى تشفٍ وهو يرمقنى ..

كانت (غادة) تنشج فى إنهاك ؛ فطوقها (محيى) بذراعه متظاهرًا بالفروسية أما (هويدا) وزوجها (الشمندورى) فقد بدا عليهما السرور .. فهما معًا .. والتجربة جديدة .. فما المشكلة إذن ؟ صحيح أنها قالت شيئًا عن أمها العجوز .. لكنه طمأنها إلى أن شقيقتها (سهام) ستعنى بها ..

وعند المدخل توقفنا .....

قالت لى (إيناس) فى رفق وقد فهمت ما يدور بخلدى :

ـ « تشجع .. كل هذه أوهام .. »

ـ « هل .. هل أنت واثقة ؟ »

ـ « ألم نتحدث عن ظاهرة (ديجا ـ فو) ؟ »

ـ « بلى .. ولكن ...... »

ودون أن أكمل عبارتى ؛ دلفت إلى الداخل ..

كان كل شىء طبيعيًا ولا يثير أى مخاوف فى النفس ..

ربما باستثناء ملحوظة واحدة .. كانت (إيناس) هى من لفت نظرى إليها .. وسرعان ما فطنت إلى أنها محقة ...

لماذا انغلق الباب ورائي ما إن دخلت القصر ؟
تقولون إنني جذبته خلفي ؟ كلا .. لم أفعل .....
أقسم بالله إنني لم أفعل !

* * *

٣ - ليلة لا أكثر ..

كانت أمسية أسود من كل ليالي (النابغة الذبياني)(*) .. صحيح أن العاديات لم يفرشن لي هراسًا به يُعلى فراشي ويُقشب .. لكن أبا (مها) تكفل بهذا الدور ، بحديثه الممل الذي لا يتعب أبدًا عن أمجاد أسرته .. وتاريخها العريق ..

كان هناك شطرنج قديم تآكلت حواف رقعته ؛ واستعاضوا عن الرخ الأسود (الطابية) فيه بعلبة ثقاب .. جلس (عبد الرحيم) و (محيي) يلعبان به على الأريكة ..

على حين راحت (مها) تعرض صور الأسرة على النساء .. (هويدا) و (إيناس) و (غادة) .. وهي صور في ألبوم ثمين تحمل جميعًا ذلك اللون الأخضر

(*) الشاعر الجاهلي الذي قضى ليالي سوداء خوفًا من بطش (النعمان) به .. فصارت (الليلة النابغية) مضرب المثل في الأرق ..

الزيتونى المميز لصور الماضى .. وبها مجموعة غير عادية من الشوارب التى تقف عليها الصقور والطرابيش ، ونساء يرتدين الدانتيلا يتظاهرن بالرومانسية والخضوع التام لأزواجهن ..

ومن آن لآخر يدور علينا الخادم النوبى بأقداح الشاى والقهوة .. ويعيد إشعال (النارجيلة) لسيده ..

ومن جهاز (الفونوغراف) تصاعدت أغنية تركية ، من تلك الأغانى التى تحسبها فى البداية أغنية عربية يتم سماعها بالعكس !

إن هذا الرجل يبالغ حقًا ..

و(مها) ما زالت تتكلم :

ـ « .. أما هذا فهو جدى الأكبر .. (عبد الحميد باشا) .. الذى نزح من (الآستانة) إلى مصر .. وأزمع أن يقيم بها أبدًا ، فرارًا من الوالى العثمانى الذى لم يكن ميالاً إليه .. »

سألتها (إيناس) دون اهتمام حقيقى :

ـ « إذن هو من أنشأ هذا القصر الفخيم ؟ »

ـ « كلا .. لقد اشتراه من صاحبه .. وصاحبه كان قد استولى عليه بعد مذبحة المماليك .. »

ـ « صاحب القصر الأول كان مملوكيًا ؟ »

ـ « نعم .. الأمير (كتخدا طومان) .. يقال إن (محمد على) ذبحه بيده .. فرصاص الجند لم يكف لقتله .. »

سألتها (غادة) وقد بدت منبهرة بكل هذه (العراقة) :

ـ « وكيف تحفظين كل هذا ؟ »

قالت (مها) فى فخر ، وهى تغلق الألبوم وتضمه لصدرها :

ـ « إنه التاريخ .. تاريخ السادة الذين حكموا هذا البلد .. »

هنا تصاعد الدم إلى رأسى .. أنت تعرف ضيق خلقى منذ أن ابتليت بهذه الكوابيس .. فتدخلت فى المناقشة :

ـ « لقد ظل هذا البلد قرونًا يعانى حكم هؤلاء السادة ، وحكم كل بائع دخان فى (الآستانة) جاء ها هنا ليجلد الفلاحين بالسياط .. الفلاحين الذين هم جدودى .. الحفاة العراة الجائعون .. »

صاحت (إيناس) فى حرج محاولة إخراسى :

ـ « (هـ) ؟ لا تأخذ الأمور بعصبية .. »

صحت أنا وقد صار إسكاتى معجزة :

ـ « أنا لا أملك جدًا اسمه (كتخدا) ولا (طومان) ولا (مراد أغا) .. لقد كان أجدادى هم (شلاطة) و(زينهم) و (بيومى) .. أراهن على أنهم ماتوا جميعًا جلدًا بالسياط .. وإننى لفخور بهذا .. »

نظرة نارية اندلعت من عينى الأب .. لكنه تمالك أعصابه ..

وبصوت ثلجى تساءل :

ـ « هل الأستاذ (هـ) اشتراكى إلى هذا الحدّ ؟ »

ـ « لا أدرى .. كل ما أعرفه هو أننى لست تركيًا .. وقد توفى أبى الموظف فى السكة الحديدية ، وفى جيبه جنيهان هما ميراثى .. »

ساد الصمت لبرهة .. وعرفت أننى سكبت دلوًا من الماء البارد فوق نيران السهرة ..

ومالت (إيناس) لتهمس فى أذنى :

ـ « هل لابد أن تحتد هكذا ؟ لقد أحرجتنى كثيرًا .. ولم يطالبك أحد بالدفاع عن الفلاح المصرى أو إثبات انتمائك للشعب .. »

كانت على حق .. فهززت رأسى فى قنوط وغمغمت :

ـ « الواقع أننى لست على ما يرام .. متى يسمحون لنا بالنوم ؟ »

تطوعت هى بسؤال الأب الذى جلس ساهمًا ، يتمنى أن يطردنى ، لكن أدب الضيافة يمنعه ..

ـ « أين سننام يا سيدى ؟ »

بدا كأنما أفاق من كابوس .. فقال فى عجلة :

ـ « آه ! هذا حق .. إن منتصف الليل قد دنا .. وأنتم سوف تسافرون بأول قطار .. إن (حسنى) سيقودكم إلى غرفكم .. »

وجاء الخادم العجوز يقودنا إلى الطابق الثانى من القصر ، بعد ما تمنينا أمسية طيبة لمضيفنا ..

تحاشيت النظر إليه .. كما تحاشيت النظر إلى الباب إياه .. والرواق الذى تعرفونه جيدًا ..

ستنام (هويدا) و (الشمندورى) فى أول غرفة بما أنهما زوجان .. وتنام (إيناس) و (غادة) فى الحجرة الثانية .. (مها) ستنام فى غرفتها القديمة .. أما (محيى) و (عبد الرحيم) فينامان فى حجرة ثالثة .. يا سلام ! ولماذا أبيت أنا وحدى ؟

الإجابة معرفة .. لأن (محيى) و (عبد الرحيم)

زميلا عمل ويرتاحان لبعضهما .. وكلاهما راغب فى المبيت مع الآخر ..

أما أنا فهما يلقيانى للمرة الأولى .. ثم إننى لم أكن ودودًا طيلة اليوم ، وأبديت عصبية بالغة جعلت الجميع لا يرحب بالبقاء معى طويلاً .. كما أنهما - حتمًا - لا يرحبان بى شريكًا ثالثًا فى حجرة النوم ..

مرة أخرى سأقضى ليلة (نابغية) محترمة .. فلو كان (النابغة) يعرفنى ؛ لاعتبر نفسه نزيلاً مرفهًا فى فندق من ذى الخمسة النجوم ..

والآن دعنى أصف الحجرة لك يا د. (رفعت) ..

يمكننى أن أقلد (بلزاك) فأصف لك كل رسم على الجدار ، وكل خدش فى الأثاث .. ويمكننى أن أقلد (جرييه) فأقول لك إنها حجرة وكفى .. لكنى سأكون وسطًا بين الاثنين ..

هى حجرة مرعبة ...

حجرة صالحة تمامًا لإحياء أجواء الرعب القوطى الغابرة ..

الباب يحدث صريرًا مرعبًا ، وكل الأبواب فى قصص الرعب تحدث صريرًا .. كأن اختراع (التزييت) لم يصل إليها بعد ..

أرضية الغرفة من الخشب العتيق المسوس الذى يحدث صريرًا بدوره ، ويجسم صوت خطواتك .. وهذا سيئ ...

الأسوأ من هذا هو السرير ذو الأعمدة العالية النحاسية ، والذى يمكنك أن تقسم إنه شهد وفاة عدد لا بأس به من الأجداد .. وهو محاط بستائر حريرية تتحرك حتى تكاد تقسم إن هناك من سينهض من الفراش حالاً .. وهذا سيئ جدًا ..

الأسوأ من هذا أن النافذة موصدة .. لكن خصاصها قد بليت وتساقط معظمها .. ومن خلالها ترى سجادة سوداء حالكة هى الليل .. الليل الملتصق بالنافذة .. وبصعوبة تنجح فى إغلاق الزجاج لتمنع الريح الباردة من تجميدك ... وهذا سيئ للغاية ..

الأسوأ من هذا هو المرآة العتيقة التى تساقط طلاؤها .. والتى تحتل جدارًا كاملاً يستحيل معه أن تصدق أن هذه مرآة .. وطوال الوقت ترى - بطرف عينك - من يتحرك فى ركن الغرفة .. فتجفل .. وسرعان ما تدرك أن هذا انعكاسك لا أكثر ... وهذا سيئ بما لا يقاس ...

الأسوأ من هذا كله هو تمثال يعلو رف المدفأة .. تمثال مخيف ، يذكرني بصور أصنام الجاهلية (يغوث) و (يعوق) و (نسرا) التى نراها فى الأفلام الإسلامية .. تمثال لا يمت للفن ولا للجمال بصلة .. ولا أجد نفعا له ، سوى أن يكون حقا وثنا عبده أحدهم فى هذه الحجرة المشئومة يوما ما .. وهذا سيئ إلى حد فلكى .. إنه السوء نفسه ..

هل أنت معى الآن فى الحجرة ؟

هل تستطيع تصور الموقف جيدا ؟

إذن لنبدأ الأمسية معا ...

★ ★ ★

لو حاولنا أن نجمع خيوط القصة في قبضة واحدة ؛ لأمكننا أن نتجاوز دور الراوى الذى يعيش الأحداث ، لنأخذ دور الراوى الذى يسردها ـ غير مشارك فيها ـ من موقع علوى .. يجعله يرى ويعرف كل شىء .. وهكذا يمكننى أن أصف لك بضعة مشاهد لم أرها .. لكنى الآن أستطيع أن أصفها كما حدثت ....

المشهد الأول : (إيناس) و (غادة) فى حجرتهما .. (غادة) كفت عن الولولة وبدأت تتحدث عن

الرجال .. فهذا ظريف وهذا مهذب .. لكنهم ـ جميعا ـ لا يقارنون بخطيبها (محيى) ذى القلب الذهبى والدعابة الحاضرة ..

لابد أن (إيناس) كتمت ضحكتها .. أنا أعرف هذا التعبير على وجهها وأحبه كثيرا ..

ولابد أن (غادة) بدأت تتكلم عنى ..

لابد أنها سألت (إيناس) عن (كنهى) .. عن سر عصبيتى البالغة وعدم اندماجى مع الحمقى الآخرين ..

قالت لها (إيناس) إننى عصبى لكن قلبى طيب ..

ولابد أن (غادة) سألتها عن جدوى كل هذا .. عن جدوى مصادقة رجل متزوج لا ينوى تطليق امرأته .. أليست هذه مضيعة للوقت ؟ وماذا عن سمعتك يا حبيبتى ؟ صداقة ؟ لا توجد صداقة بين ذكر وأنثى .. وإن وجدت فهى كصداقة الأسد والحمار الوحشى .. جديرة بأن تعرض كفقرة فى السيرك القومى ..

ثم راحت تلك الثرثارة تتفقد الحجرة ، وتقلب حشية السرير مرددة عبارات الحسد لـ (مها) على ثراء

أهلها .. وذهبت إلى ركن النافذة تتفحص الستائر وخامتها بعين ناقدة جديرة بخبير مثمن .. ومصمصت شفتيها تحسرًا ..

وحين خلعت حزامها لم تجد مكانًا أفضل لتعليقه سوى .. سوى هذا التمثال القبيح الموضوع على رف المدفأة ...

ـ « هؤلاء الأثرياء .. لهم ذوق غريب أحيانًا ! »

* * *

المشهد الثانى : (هويدا) وزوجها فى حجرتهما ..

يمكن القول دون جهد إن (هويدا) كانت فى أسعد حالاتها .. وراحت تصف كم أن كل شيء رائع ، وإن كانت تضايقت نوعًا من زوجها حين مدّ يده لـ (غادة) كى يعينها على مغادرة القارب ، بعد النزهة النهرية التى قاموا بها ..

ـ « لكنها ضريبة الرجولة يا (هويدا) .. الإتيكيت .. »

ـ « دع هذه الضريبة لخطيبها كى يدفعها بدلاً منك .. »

ومشت نحو المدفأة العتيقة تتأملها فى انبهار .. وتوقفت عيناها عند التمثال المريع الموضوع فوقها .. فقالت مجفلة :



ومشت نحو المدفأة العتيقة تتأملها فى انبهار .. وتوقفت عيناها عند التمثال المريع الموضوع فوقها ..

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .. كأنه من عالم المنحوس (رفعت إسما ......) ! »

ـ « عالم من ؟ »

ـ « لا .. لا شيء .. تذكرت حكاية قديمة .. »

وأشرق وجهها وهى تنظر إليه محاولة جعله ينسى ..

* * *

المشهد الثالث : الشابان (محيى) و(عبد الرحيم) فى حجرتهما ..

يتحدث (محيى) عن (غادة) فى إفراط ، وهو يدخن ويتأمل سقف الحجرة فى هيام .. ومن حين لآخر يتوقف ويدندن لحنًا لإحدى أغنيات (عبد الحليم حافظ) وقد رسم علامات العذاب على وجهه :

ـ « بتلوموني ليه ؟ إم م م م .. بتلوموني ليه ؟ إرررم ! »

ثم ينسى الغناء ويواصل الكلام عنها .. وبعد دقائق :

ـ « أول مرّة .. أو مرّاااااة ! »

سأله (عبد الرحيم) وهو يفك رباط عنقه :

ـ أنت تحبها حقًا ؟ »

ـ « جدًا .. جدًا .. كما تحب أنت (مها) .. »

غمغم (عبد الرحيم) وهو يحلّ أزرار قميصه .. ويتأمل وجهه فى المرآة :

ـ « أنا لا أدرى إن كنت أحبها أم لا .. إن هذا التراث العاطفى الذى نحمله جميعًا يجعلنا ملهوفين على الحب .. فما إن نلقى إنسانة تصلح قليلاً حتى نملأ الدنيا صراخًا وغناء وشعرًا .. ولا نترك لأنفسنا فرصة كى نتريث ونسأل أنفسنا عن أى شيء .. »

ـ « إن (مها) جديرة بأن تُحبَ .. »

ـ « نعم .. مع كل هذا الثراء .. إن من لا يحبها هو مغفل أو مخبول .. لكنى اليوم أشعر باهتزاز مريع فى ثقتى بنفسى .. »

ـ « الثقة بالنفس تأتى من كونها تميل إليك .. »

ـ « هراء ! »

قالها فى عصبية ، وقذف قميصه على طرف الفراش .. ثم استطرد :

ـ « ماذا أقدم لها ؟ ماذا أملك ؟ اليوم فقط شعرت بأننى تورطت فى لعبة كنت أجهل قواعدها .. وها هى ذى الفتاة بسيطة الطبع والملمس التى

عرفتها ، تكشف عن وجهها ، فإذا هو وجه الأرستقراطية التركية .. بارع الحسن .. المتعالى .. المستفزّ .. »

ثم جلس على طرف الفراش .. وغمغم فى مرارة :

ـ « إننى أتضاءل ! »

كان هذا الحديث يدور بالتأكيد فى تلك اللحظات التى تسبق النوم .. ولم يكن أحد الشابين يعرف أنه فى دهاليز هذا القصر يتحرك الشىء الذى سيحدد مصير حب كل منهما ...

يا للسخف ! كيف لو عرفا تفاهة ما يتكلمان عنه !

لكنهما كانا يعرفان شيئًا واحدًا على وجه اليقين : إن هذا التمثال الموضوع على رف المدفأة كريه جدًا .. ولا يثير أى ارتياح فى النفس ولم يعرفا سببًا لهذا .....

★ ★ ★

المشهد الرابع : (مها) فى حجرتها القديمة .. تجول فى أرجائها وتتحسس الستائر فى افتتان .. على شفتيها ابتسامة غامضة ..

تنظر إلى ساعتها وتغمغم هامسة :

ـ « مازال الوقت مبكرًا جدًا .. »

ثم تطفئ الضوء الكهربى ، وتتسلل إلى الفراش ..

★ ★ ★

المشهد الخامس : ثمة باب فى الطابق الأرضى .. باب موصد يقود إلى ما يشبه الكرار القديم المنسى ..

لو دققت النظر أكثر ، واعتدت الظلام ؛ لعرفت أن مقبض الباب يدور ببطء .. ولا يحدث الصرير المعتاد ....

إن الباب ينفتح .. ولكن ليسمح بمرور أى شىء ؟!

★ ★ ★

٤ ـ إنـــه يحيـــا !

فى حجرتى أتسلى بقراءة مجلة مصورة ، ابتعتها صباح اليوم ـ أم هو الأمس ـ من الإسكندرية ، ولم أجد الوقت الكافى لقراءتها :

لن أستطيع النوم .. ولن ألتمس له الأسباب .. إن هى إلا ليلة تمرّ طولاً أو عرضًا ..

إننى أهاب النوم فى مكان غريب .. أكره أن يأتى الخطر المبهم ليجدنى راقدًا معدوم الحيلة غير مدرك لوجوده ..

وأنا أكره هذا القصر .. وأعرف أنه يكرهنى بالمثل ....

* * *

نهضت من جديد لأتأمل التمثال ـ شبيه (يعوق) ـ الموضوع على رف المدفأة ، واستعدت من جديد الشعور بأنه مألوف لى .. هذا الشكل قد مرّ بى من قبل .. لكن أين ؟

وهنا جاء الجواب سريعًا ..

إنه (الجاثوم) ذاته !

بالتأكيد هو .. لقد كانت كوابيسى مبهمة دائمًا .. ولم أستطع قط تمييز ملامح (الجاثوم) .. لكننى كنت أعرف أنه هو ..

أما الآن فأتذكر هذه الملامح .. ولاشك لدىّ فى هذا ..

تمثال (جاثوم) فى غرفة النوم ؟ هذا غريب .. معنى هذا أننى لست واهمًا .. هذا القصر يحوى التفسير الكامل لكل ما مرّ بى ..

أمسكت بالتمثال كمن يمسك أفعى .. كان ثقيلاً كالكابوس .. وكان من خامة حجرية لابد أنها (الشست) ، وإن كانت معلوماتى الجيولوجية هى معلومات طالب فى المدرسة الإعدادية ..

وفوق قاعدته رأيت حروفًا لاتينية محفورة :

Incubus -- R.J. simpson

1803

بالتأكيد هو المثّال الذى صنعه .. وبالتأكيد فى عام ١٨٠٣م .. إنه لأثر حقيقى إذن .. عمره يتجاوز قرنًا ونصفًا ..

لكن الفضول حركنى أكثر .. فأنا لا أهوى التماثيل .. على الأقل تلك المصنوعة من حجر (الشست) ..

رفعت ذراعى وهويت بالتمثال على الأرض ، ليتهشم إلى ١٦٤٧ قطعة .. أحدث ضوضاء لكنها لم تغادر حجرتى حتمًا ..

كان التمثال مُصمتًا تقريبًا من الداخل .. لكن هناك تجويفًا صغيرًا فى منطقة الصدر .. تجويفًا يسمح بدخول قطعة من النحاس تشبه الشريحة .. وحين أمسكت بالقطعة ـ وقلبى يرتجف ـ قرأت عليها كتابة باللغة اللاتينية .. مزيجًا من حروف (الواو) و (السين) على غرار (كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس) ..

وبالطبع لم أفهم حرفًا ..

لكن الأمر كله كان له مذاق مريع أعوذ بالله منه .. هذا الجو الشيطانى الأسود المتهجم ..

* * *

الـ Incubus ـ هذا الكائن الافتراضى ـ يميل لمهاجمة النساء ، ويجعلهن يعشن كوابيس مريعة .. أما الـ Succubus فمعادله الأنثوى .. ويتخذ صورة أنثى

تهاجم الرجال وهم نائمون .. فتجثم فوق صدورهم .. وتجعلهم يرون أشنع الكوابيس طرًا ..

* * *

الواحدة صباحًا .. مازال الصباح بعيدًا ..

* * *

الواحدة والربع صباحًا .. مازال الصباح بعيدًا ..

* * *

الواحدة والنصف صباحًا .. مازال الصباح بعيدًا ..

* * *

الثانية إلا .. هه ؟! هل سمعت هذا الصوت ؟

صوت طويل رفيع متحشرج .. لا يمكن إلا أن يكون صراخًا .. صرخة امرأة على وجه اليقين .. والأسوأ أنها قادمة من ذات الطابق ..

هرعت أفتح باب الحجرة .. أزيح المزلاج .. واختلست نظرة إلى الوراء فرأيت من يفرّ مبتعدًا .. لكن .. إنها صورتى فى المرآة اللعينة !

فتحت الباب بمنامتى حافى القدمين ..

وكان الرواق خارج الغرفة يعجّ بالبشر .. الجميع غادر حجرته ليرى ما يحدث .. (إيناس) .. (عبد الرحيم) .. (سعيد) .. (هويدا) .. (غادة) .. الرجل يفركون

عيونهم ، والنساء يضممن أراوبهن على أجسادهن ، وعيونهن ترسم علامات استفهام مريعة ..

ومن مكان ما برز الأب .. ضخما مهيبا صارما حتى فى جلباب النوم .. ونظر لنا بعينين لا تريان .. وقال للاأحد :

- « الصرخة من غرفة (مها) ! »

ثم اخترق صفوفنا قاصدا بابا فى نهاية الرواق .. وقرع الخشب بحزم عدة مرات .. وبصوت آمر هتف :

- « (مها) ! افتحى الباب .. »

لا جواب ..

- « (مها) ! ماذا حدث ؟ »

لا جواب ..

نظر نحونا بصرامة .. أشار إلى (عبد الرحيم) و (محيى) ليقتربا .. وقال فى خطورة :

- « إنها توصد الباب من الداخل .. هلمّا اكسراه ! »

ولم يجد الشابان وقتا ليناقشا الأمر .. بل تراجعا إلى الوراء ثم اندفعا بكتفيهما القويتين .. و .. طاخ ! لم يجد الباب هو الآخر وقتا ليفهم .. لقد انفتح وتهشم المصراع وتدلى من الجانب ، وغاب الشابان داخل الغرفة ليسقطا على الأرض بالتأكيد ..

لكن الأب لم ينتظر .. خطا فوق جسديهما قاصدا الفراش ..

وتوقفنا نحن الرجال حياء خارج الحجرة ، أما النسوة فهرعن يخطون فوق جسدى (عبد الرحيم) و (محيى) ليرين ما هناك ..

مرت هنيهة .. ثم برز الأب بوجه مغلق ليذبنا بذراعيه بعيدًا :

- « لا شىء هنالك يا شباب .. لقد رأت كابوسا .. عودوا لنومكم .. »

وخرج (عبد الرحيم) و (محيى) ، وتأخرت النساء قليلا بالداخل ..

بعد قليل خرجت (إيناس) من الحجرة .. وكنت أنتظرها على أحرّ من الجمر .. فما إن رأتنى حتى هتفت فى انبهار :

- « هذا غريب ! لم أتصور أنك تخلع بذلتك حتى فى أثناء النوم .. لا تبدو لى متحضرا على الإطلاق بمنامتك .. »

فى سأم أجبتها :

- « كذلك أنت لا تبدين فاتنة جدًا بهذا الشعر

المنكوش .. ولكن دعينا من هذا الهراء .. ما الذى يحدث بالداخل ؟ »

قالت لى إنهم وجدوا (مها) فى الفراش ..

كانت منبطحة على وجهها ترتجف .. ومن فمها المدفون فى الوسادة تصاعد صوت نشيج ..

مدت (إيناس) يدها إلى شعرها ، وأجبرتها على الالتفات فالنهوض .. لكن الفتاة كانت فى حال هستيرية غير معقولة ..

ـ « إن النساء هن الهستيريا ذاتها .. » ـ قالت (إيناس) فى امتعاض ـ « .. وكلمة (هستيريا) نفسها مشتقة من كلمة (رحم) اللاتينية .. »

قلت لها وقد نفد صبرى :

ـ « .. أعرف أنك عبقرية .. ولكن أكملى القصة أرجوك .. »

ـ « لا شىء .. قالت (مها) إنها رأت كابوسًا .. كان هناك شىء يخنقها ويمنع الهواء من دخول رئتيها .. وحين فتحت عينيها وجدت كائنًا مريعًا يجثم على صدرها .. إنها القصة التقليدية .. ما كان لها أن تلتهم كل هذه الأطنان من الفطير (المشلتت) فى العشاء .. »



وأجبرتها على الالتفات فالنهوض .. لكن الفتاة كانت فى حالة هستيرية غير معقولة ..

ـ « و .. وهل هى بخير ؟ »

ـ « طبعًا .. ما إن صرخت حتى انتهى الكابوس .. لكنها ظلت تردد دون كلال : التمثال ! التمثال ! إن هذا (هـ) ؟ هل أنت على ما يرام ؟ لماذا شحب وجهك هكذا ؟ هل أنت على وشك أن تقىء ؟ ماذا دهاك ؟ »

* * *

وهكذا انفض الجمع ..

ووضع الأب ذراعه يطوق كتف ابنته المرتجف ؛ فقد اعتزم أن تمضى الليل معه فى حجرته .. لن يطالبها أحد بأن تنام وحدها هذه الليلة ..

كم أحسدها ! لابد أنها استعادت ذكريات الطفولة الباسمة .. حين كنا ننهض صارخين فى الظلام ، فنجد من يعانقنا .. ويهدئ من روعنا بكلمات هامسة حانية .. ويلثم جبيننا بشفتين دافئتين .. ثم يحملنا لننام معه .. كيف يمكن أن تؤذينا كل شياطين الكون بعد هذا ؟!

كم أحتاج أنا الرجل الناضج إلى من يفعل معى ذات الشىء !

لكن زمن تلقى الحنان قد ولى .. علىّ أن أعانى كل

شىء وحدى .. علىّ أن أقف وحيدًا فى العواصف كجدار .. بل ـ تصور هذا ـ أنا مطالب بأن أعطى الحنان والحماية للآخرين !

حنين جارف نحو زوجتى تحرك فى أعماقى حين عدت لحجرتى .. فهى ـ على الأقل ـ آخر من منحنى هذا الحنان النفيس ..

كنت قد نسيتها تمامًا .. حتى وجهها صرت أجد بعض المشقة فى استرجاعه على الفور ..

جلست فى الحجرة ، وأعدت تفقدها .. بالتأكيد كل شىء سليم وفى موضعه .. والنافذة موصدة قدر الإمكان ، والمصراع مغلق . فلتزأر العاصفة إذن .. فلتزأر العاصفة ..

غدًا أطلب الزواج من (إيناس) .. فإن قبلت كان طلاق بينى وبين زوجتى .. هذا هو الحل الأوحد ... أنا أكره الخداع .. كمدرس رياضيات أعرف أن س + س لاتساوى إلا ٢ س .. وأن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .. وزوجتى تخلت عنى ..

(إيناس) لن تقبل امرأة أخرى فى حياتى .. ولكن هل توافق حقًا ؟ النوم يحاول التسلل إلى عينى

دون استئذان .. يقول كلامًا فارغًا ظاهره الصدق .. يقول إن الليل توغل.. يقول إنه كان يومًا شاقًا .. يقول إن الكابوس لن يعاودنى ..

لكن لا ..

لا تحاول خداعى .. لا تحاول إلقاء ذرات رملك السحرية فى عينى ..

لن أنام .. كل شىء سليم وفى موضعه .. يوجد خطأ ما فى هذه العبارة .. هئ هئ ! جنيه كامل لمن يجد أربعة أخطاء مع (على فايق زغلول) هئ هئ ! كل شىء سليم وفى موضعه ..

يوجد خطأ ما .. هل حزرت ما هو ؟

ولكن .. يا للمصيبة ! لقد فهمت !!

* * *

٥ - لا أحب هذا ..

ملحوظة من د. (رفعت إسماعيل) :

أكره التدخل فى سياق القصة ؛ لكنى أرجح أن ما أدركه (هـ) هو أن التمثال بحال طيبة ! ألم يهشمه منذ قليل ؟ ثم بعد هذا وجد الحجرة على ما يرام من ناحية الترتيب ..

إن هذا يفوق قدرة المرء على التجلد دون ريب ..

* * *

عند هذه النقطة وثبت كالضفدع من الفراش .. هرعت نحو رف المدفأة حيث تربع ذلك التمثال القبيح يرمقنى فى ثبات مزعج ! لم يعد بوسعى أن أزعم أن الصدفة هى ما يتوارى فى دهاليز هذا القصر .. لقد هشمت التمثال بنفسى منذ نصف ساعة .. ووجدت النقش النحاسى إياه ؛ والآن هو ذا سليم تمامًا كقلب رضيع ..

هل أهشمه من جديد ؟ لا .. سيكون هذا مملاً ..

عدت إلى الفراش تحوطني الأعمدة النحاسية كشواهد القبور ..

اصبر يا (هـ) .. اصبر .. إنها ليلة ككل ليلة .. لن يستطيع الشيء أن يؤذيك مادمت لن تغفو .. ومادمت لن تغادر الحجرة ..

مشكلة أبطال قصص الرعب هي أنهم يتصرفون بتهور مستفز .. يصرون - دون سبب واضح - على نزول القبو الملىء بتوابيت مصاصى الدماء ليلا .. ويصرون - برغم نذر الخطر - على ارتياد الغابة المظلمة وحدهم ..

سأكون أنا أذكى منهم ، وسأقبع فى فراشى كمريض الدرن ..

إنها الثانية والربع صباحًا ..

* * *

أستعير مرة أخرى أسلوب الراوى الغائب .. الراوى كلى القدرة الذى يرى ويسمع كل شيء ..

تعال ندخل معًا إلى حجرة الفتاتين (إيناس) و(غادة) .. إنهما نائمتان فى الفراش .. كلا .. ليستا نائمتين ..

إن (غادة) راقدة على ظهرها وقد عقدت ذراعيها خلف مؤخرة رأسها .. وقد راحت تتأمل الظلام شاخصة البصر .. وهى تثرثر بذلك الصوت الهامس المنهك المغرى بالنعاس ..

بالتأكيد تتحدث عن (محيى) ..

على حين ترقد (إيناس) على جنبها معطية ظهرها لصديقتها .. وقد سبقها النعاس وإن برمجت نفسها على إعطاء ردود متباعدة مدروسة على شكل همهمات ، توحى لصاحبتها أنها تتابعها بشغف :

- « هم م ! هم ؟ هم م ؟.. م م م !.. هم م ؟ »

كان الفراش مريحًا ، واليوم طويلًا مرهقًا .. والدفء سلطان له الغلبة .. لهذا لم تقاوم طويلا ..

وبعد قليل تسلل النعاس إلى عينى جهاز الراديو المسمى (غادة) ، فنامت بدورها ..

كم من الوقت نامت (إيناس) ؟ لا تدرى حقًا .. لكنها استيقظت على صوت الخطوات على أرض الحجرة الخشبية ..

رفعت رأسها فى خمول .. وتفقدت الهواء الأسود الذى يسود المكان .. لا شيء يتحرك .. إن الضوء

الخافت القادم من الرواق يسمح بتبين حدود الأشياء ..

عادت تدفن رأسها فى الوسادة ، وغابت عن الوجود لحظات ، ثم سمعت صوت الأنين .. صوت امرأة تكافح من أجل التنفس .. يخالطه صوت بكاء يائس ..

أدارت وجهها نحو (غادة) فرأتها نائمة على ظهرها كما كانت .. وذراعاها معقودتان تحت رأسها ..

لكن ظلاً كبيرًا كان يعلو جسدها .. ظلاً لم تتبين (إيناس) كنهه ، لكنه لم يكن ذا شكل آدمى .. كان شىء ما يجثم فوق صدر (غادة) فى هذه اللحظة !

مرّت ثوان من محاولة فهم الموقف .. ثم البحث عن الصوت .. فالصراخ .. الصراخ الذى يمكنه إيقاظ قتلى حرب (قادش) جميعًا ..

★ ★ ★

وتكرّر مشهد النهوض .. فالركض .. فالاحتشاد فى الردهة ..

وحين ظهر الأب هذه المرة كان فى يده مسدس ألمانى ضخم .. وكان أحد الخفراء يهرع وراءه ملوحًا ببندقيته العتيقة ..

لم نحتج إلى اقتحام الحجرة مرة أخرى ؛ لأن الباب كان مفتوحًا .. ومنه برزت (إيناس) وعلى وجهها أعتى إمارات الهلع ..

صاحت وعيناها توشكان على الانفصال :

ـ « لقد فر ! ألم تروه ؟ »

وأشارت إلى الطرف الآخر من الرواق ..

كان الخفير عمليًا جدًا .. لم ينتظر ليسألها أسئلة سخيفة .. ما دامت تقول إنه (فرّ) فهو شخص ما .. لصّ غالبًا ..

وفى عينه المتسعة التمعت نظرة (حكومية) صارمة .. وارتجف شاربه الكث ، وهو يركض فى الاتجاه الذى أشارت إليه ..

سألتها وأنا أمنع نفسى من احتضانها :

ـ « من هو ؟ هل أنتما بخير .. »

ـ « بخير .. بخير ! » ـ وأخذت شهيقًا عميقًا ـ « .. كان يحاول خنق (غادة) فى أثناء نومها .. لم يبد لى بشريًا .. لكنه الظلام .. » ـ شهيق عميق آخر ـ « .. الظلام .. و .. حين صرخت انطلق كالبرق نحو باب الحجرة .. فتحها .. و ... و .... »

سألها (محيى) وهو يرتجف بدوره :

ـ « و .. و (غادة) ؟ »

ـ « بـ .. بخير .. إنها تبكى .. ظننت أنها رأت كابوسًا .. و .... »

صاح متظاهرًا بالغضب ، وهو يلوح بقبضته حيث توارى الخفير :

ـ « الوغد ! لسوف أجده وأمزقه .. »

لكن لسان حاله كان يرجونا ألا نتركه لحظة .. ولم أجد ما يمنع من مداعبته مداعبة قاسية .. فأشرت إلى الاتجاه المعنى قائلا :

ـ « إذهب من هنا ! كن حذرًا .. لا تتهور فتقحم نفسك فى جريمة قتل ! »

لم يستطع أن يرفض .. فانطلق يركض فى الاتجاه المقصود بساقين كعودين مسلوقين من المكرونة ..

على حين دخل الأب الحجرة وتفقدها ..

وفى هذه المرة دخلنا معه لأن الأمر يتجاوز الحياء .. ولئن كان لا حياء فى العلم فأنا أضيف أنه لا حياء فى الرعب ..

راح ـ بوجه صارم خطر ـ يتفقد أرجاء الغرفة .. ركع تحت الفراش .. انحنى ليتأمل المدفأة ..

ـ « لا أفهم .. » ـ قال شاردًا ـ « .. من أين دخل هذا الوغد ؟ »

قال (عبد الرحيم) وهو يستوثق من غلق النافذة :

ـ « من المدفأة حتمًا .. » .

داعب الأب شاربه مفكرًا .. وغمغم :

ـ « المدفأة مسدودة .. إنها مجرد ديكور .. »

قالت (هويدا) وهى تشير إلى الفراش :

ـ « بالتأكيد كان كامنًا من البداية تحت الفراش .. »

قال زوجها مؤمنًا وهو يرفع سروال منامته ، الذى كاد الركض يسقطه :

ـ « .. من البداية .. أو ربما دخل حينما صرخت (مها) .. »

ـ « هذا وارد .. فلم يعن أحد بإغلاق حجرته .. »

غمغم الأب متجهمًا وهو يتأمل السقف :

ـ « المشكلة هى : كيف مرّ من هؤلاء الكسالى الذين يحرسون القصر ؟ وكيف صعد إلى هنا ؟ إننى أتساءل عما إذا كان واحدًا منهم .. إن هذا وارد .... »

قالت (إيناس) وهى ترفع يدها معترضة :

ـ « أكرر لكم .. لم يبد لى بشريًا على الإطلاق ! »

- « ها نحن أولاء نعود للكلام الذى لا يجدى فتيلاً .. »

قال (عبد الرحيم) محاولاً أن يعيد جوَّ التعقل إلى الموجودين :

- « على كل حال .. لقد كررنا الخطأ ذاته .. وعلينا أن نتأكد الآن قبل دخول غرفنا أن أحدًا لا يختبئ تحت الفراش أو فى المدفأة ! »

- « هذا حق .. لقد نسينا واجب الحذر ثانية .. »

ثم تصلب وغمغم فى شرود :

- « نسينا شيئًا آخر .. لكنى لا أذكر ما هو .. »

هنا دوت الصرخة الأنثوية المريعة من بعيد ..

- « يا للهول ! لقد نسيناها ! »

- « (مها) ! »

- « تركتها نائمة فى الفراش منهكة .. وباب الغرفة مفتوح ! »

وكما يحدث فى أفلام الرسوم المتحركة ؛ رأيتهم يركضون نحو مصدر الصرخة .. وقد تحولت أقدامهم إلى عجلات من فرط سرعتها ..

لكننى لست أحمق كالآخرين ..

لن نقضى الليل كله فى تكرار الخطأ ذاته ..

سأبقى أنا هنا لحماية (غادة) حتى يعودوا لى ..

ونهضت من فوق طرف الفراش لأمشى نحو المرآة العملاقة وأتأمل صورتى فيها ..

إنهم يتساءلون عن مصدر قدوم الجاثوم ..

ما هى المشكلة ؟ إن التجسدات الخوارقية لا تخضع لحدود الجدران ..

لقد جاء الجاثوم عَبر الجدار .. أو عَبر لُجين المرآة .. أو تجسد فى هواء الحجرة دون مشاكل ..

الآن أنا واثق من هذا ..

لكنهم لا يعلمون .. يظنون كل هذا خاضعًا للمنطق ..

* * *

وسمعت صوتهم عائدين ؛ فوقفت على باب الحجرة أنتظر معرفة هذا الكابوس الجديد الذى عاشته (مها) ..

لكنهم كانوا أكثر هدوءًا .. وسمعت (عبد الرحيم) يردد :

- « فأر ! كل هذا الصراخ من أجل فأر ! »

قال الأب وهو يطوق كتفى ابنته بذراعه :

- « لقد كان باب الغرفة مفتوحًا .. وفجأة وجدت الفأر جوار رأسها على الوسادة .. إنها تجربة مروعة .. »

قال (سيد الشمندورى) متظرفًا :

- « إن المرأة تخشى الفأر بنفس القدر الذى يخشى به الرجل المرأة ! »

غمغم (عبد الرحيم) فى سأم :

- « يا لها من ليلة ! ليتها تنتهى .. »

- « حتمًا ستنتهى .. »

وتحرك الجمع يتفقد كل حجرة من الحجرات .. هذه غرفة الفتاتين .. لا شىء تحت الفراش أو فى المدفأة .. هذه غرفة الزوجين .. سليمة تمامًا .. هذه غرفة الشابين .. لا بأس .. ثم غرفتى .. كل شىء مطمئن ..

وسرعان ما انفتحت الأبواب وانغلقت .. ودوى صوت أربعة مزاليج توصد ..

* * *

كدت أعود لأتربع فوق الفراش ، لولا أن سمعت صوت قدمين تهرولان فى الخارج ..

صوت محادثة .. أميز منها صوت (محيى) وصوت الأب الذى كان على باب حجرتى لم يبرحه بعد ..

ثمة شىء مقلق فى نبرة الكلام ..

اتجهت إلى الباب .. وفتحته ..

كان (محيى) متجهم الوجه ممتقعه .. والأب يرمقه فى ارتياب وعدم تصديق .. عندها رآنى ..

قال الأب متحاشيًا النظر إلىّ كأنه لم ينس غضبه بعد :

- « تعال معنا لنرى هذا .. »

كان الكلام موجهًا لى .. لكنه خال من أدوات النداء .. خال من البدلات بعد (هذا) .. كناية عن اشمئزازه منى .. وعدم رغبته فى إظهار أدنى قدر من الودّ تجاهى ، حتى لو أملته قواعد اللغة ..

سرت معهما لأرى (هذا) .. ولم أنس - على سبيل الروتين - أن أغلق باب حجرتى ورائى ..

كانا يهبطان فى الدرج قاصدين الطابق السفلى .. لا بد - إذن - أن نهاية الرواق تقود إلى درج خلفى .. يقود بدوره إلى الطابق السفلى ..

وتحاشيت النظر إلى الباب الشهير في القاعة الكبرى .. لم أحاول أن أرى ما إذا كان مواربًا أم لا ..

فجأة سألت الأب (ولا أدرى لماذا خطر لى السؤال) :

ـ « ماذا يوجد تحت هذا القصر ؟ »

قال وهو يواصل السير خلف (محيى) :

ـ « لا شىء .. شبكة ممرات معقدة جدًا .. إن المماليك الذين بنوه يومًا ما كانوا راغبين فى وجود مخارج طوارئ عديدة .. »

وكانت هناك غرفة قديمة .. غرفة كرار أو شىء من هذا القبيل .. الظلام يغمر هذا الركن من القاعة ..

لكنى رأيت شيئًا .. وانحنى الأب على ركبتيه يتفحص ما وجده ..

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « مثل رأيك .. »

مدَّ إصبعه وغمسه فى الدمَ .. وتفحصه :

ـ « إنه طرى .. بالتأكيد تم هذا فى الدقائق الماضية .. رباه ! ما أكبرها بقعة ! وها هى ذى بندقيته .. إن (بسطويسى) لا يترك بندقيته أبدًا ..

فهى جزء من شرفه .. أقسم إن مكروهًا قد حدث .. »

قال (محيى) معترضًا :

ـ « لم نسمع صراخًا ولا طلقات .. ما كان هذا ليتم فى صمت .. »

ـ « ربما أن الأحمق جرح نفسه ، وترك كل شىء ليجد ما يضمد به هذا الجرح .. »

قلت أنا وقد استجمعت خيوط القصة :

ـ « كنا سنجد خيط الدم يتجه إلى القاعة .. أما هنا .. فإننى أرى الخيط يدخل الحجرة .. ليتوارى وراء الباب .. »

كان ما قلته واضحًا ..

ـ « ماذا يوجد ها هنا ؟ »

ـ « غرفة كرار .. إنها سلة مهملات القصر .. »

قالها وتعمد أن يلفظ (سلة المهملات) بالفرنسية (بوبيلَ) ، لأن لسانه يعفّ عن ذكر لفظة بذيئة كهذه ..

قلت له وأنا أضغط على زرّ مفتاح النور الذى ينير هذا الجزء :

ـ « سنجد جثة (بسطويسى) بالداخل ! »

- « فأل الله ولا فألك ! أقتلت الرجل بهذه السرعة ؟! »

لم أردّ .. إنما أشرت لهما كى يتراجعا للوراء .. ومددت يدًا مرتجفة إلى مقبض الباب ..

* * *

٦ - المزيد منه ..

ولكن .. دعونا من هذا الموقف .. فهو يبدو خاليًا من التشويق فى رأيى ..

إن تتابع (فتح حجرة مظلمة بداخلها خطر مريع) لهو من أقدم التتابعات فى قصص الرعب .. ولربما أثار هذا ملل القراء ..

لنترك (هـ) الآن فى محاولته لمعرفة ما يجرى فى الحجرة ..

لنترك الخفير المختفى .. والأب المتوجس .. و(محيى) المذعور ..

وتعالوا نتلصص على حجرة (هويدا) وزوجها ..

* * *

لن يكون النوم سهلاً .. فـ (هويدا) ترتجف كورقة ..

وفيما بعد عرف (هـ) أن لها خبرة مروعة مع لعنة الفراعنة ، جلبها عليها خطيبها الأحمق السابق ..

ولن تنسى أبدًا يوم وقفت مشدوهة فى حجرتها الموصدة ترمق شيئًا ما يحاول فتح خصاص النافذة ليدخل !

تقول إن العسل والبصل أنقذاها منه .. لا بد أن هناك قصة مسلية بخصوص هذا الموضوع .. لكن الوقت لا يسمح بالاستقصاء ..

(هويدا) ترتجف كورقة ..

أما زوجها فقد أدار ظهره لها ، وراح يغط فى نعاس لذيذ ، يقطعه من وقت لآخر بأن يلوك شفتيه متلمظًا .. وهى علامة الاستمتاع بالنوم كما نعلم ..

تأملته فى غلّ ..

ليس مناسبًا ليكون فارس أحلام .. لكنه زوج وزوج يحبها .. كان خطيبها السابق شديد القبح ـ كما حكت لى (إيناس) ـ لكنه كان يتمتع بمركز علمى مرموق ، وكان واسع الخيال(*) ..

لماذا فقدته ؟ لم تعد تذكر الآن .. لقد كان يحبها بجنون .. لكن (إرادة النكد) حق لا ريب فيه مثل

(*) لحسن الحظ لم يعرف (هـ) بعد من هو خطيب (هويدا) السابق !

(إرادة الفشل) و(إرادة الموت) .. و(إرادة النكد) هى الشىء السحرى الذى يدفع المرء لإفساد سعادته حين يكون سعيدًا .. ويدفع محبين متفاهمين إلى الشجار دون سبب أو لسبب لا يذكر ..

أمها تفسر هذا بوجود (عمل شرير) .. لكن خطيبها السابق هو من حدثها عن (إرادة النكد) هذه .. وقال لها إن لذة التعذب هى ما يدفع المرء لاختلاق (النكد) اختلاقًا ..

الحق أنه علمها الكثير .. وبعد رحيله فقدت أكثر ثقافتها .. وعادت بيضاء العقل من غير سوء ..

لكن (سيد الشمندورى) يختلف .. إنه مرح جدًا محدود الثقافة يفتقر إلى الذكاء .. كله رضا عن نفسه وعن الكون .. باختصار هو زوج مثالى لمن تريد زوجًا لا أستاذ فلسفة ..

أخيرًا كفت عن الارتجاف ..

راحت تتأمل الحجرة فى فضول .. حجرة جميلة حقًا وفاخرة .. لكنها تثير هلعًا ما فى قلبها .. متى يأتى الصباح ؟

رفعت رأسها إلى أعلى تتأمل السقف المظلم ..

النجفة العملاقة الفاخرة التي تكفى (بللورة) واحدة منها لإفلاس زوجها .. نجفة ملفوفة بإحكام فى قماش (الكريتون) لمنع الغبار من إتلافها .. وإن تدلى مصباح صغير منها يكفى لإضاءة الحجرة .. و ...

هذه البقعة السوداء العملاقة فى السقف ..

لماذا لم ترها من قبل ؟ أتراه الماء يتسرب من حمام علوى ؟ لا .. إن هذه البقعة .....

بقعة لها سُمك ! بقعة لها أطراف ! بقعة تتحرك !

كلا .. ليست هذه بقعة سوداء .. لقد جعلها الظلام تخطئ التمييز ..

إنها شىء حىّ ! جسم عملاق يلتصق بالسقف كالبورص ..

إنه هو ! بالتأكيد هو !

كان فوق رأسيهما طيلة الوقت فلم يرياه ..

والآن .. هذا الشىء يهوى من السقف .. يهوى فوقها هى بالتحديد ..

وها هو ذا يجثم فوق أنفاسها فلا تقدر على الصراخ ..

★ ★ ★



وها هو ذا يجثم فوق أنفاسها فلا تقدر على الصراخ ..

أخيرًا دوت الصرخة ..

لكنها صرخة رجل هذه المرة ..

واندفعنا كالمجانين من كل صوب قاصدين الغرفة التى سمعنا الصوت منها .. وعرفنا دون لأى أنها غرفة (الشمندورى) وزوجته ..

طرقنا الباب مرارًا .. وكدنا نهشمه ..

وفى النهاية انفتح عن وجه (الشمندورى) .. الوجه الحازم المذعور .. والعرق يغمر جبينه ..

ـ « ماذا حدث ؟ »

ـ « إنه هو ! لقد كان متشبثًا بالسقف ! »

ـ « عم تتحدث ؟ عن بورص ؟ »

ـ « بل عن الشىء الذى رأته الفتاتان .. لقد صحوت من النوم لأجده يحاول خنق زوجتى ! »

كدنا ندخل الغرفة .. لكنه سدّ الباب فى إصرار بكتفه :

ـ « لا داعى .. إن زوجتى بالداخل .. والشىء ليس هنا .. لقد .. لقد هشم خصاص النافذة وفرّ منها .. »

★ ★ ★

لم يعد هناك داع لأن يبقى أحد نائمًا فى القصر ..

اجتمعنا جميعًا فى إحدى قاعات الجلوس بالطابق الثانى ، وصحا الخدم ، وأضيئت الأنوار جميعًا ، وارتدى أكثرنا ثياب الخروج ..

قال (الشمندورى) وهو يحكم غلق روبه الصوفى حول جسده :

ـ « لا يمكنك أبدًا معرفة كنه هذا الشىء .. إنه أسود ويظهر فى الظلام الدامس .. لكن يمكن القول إن له أطرافًا ورأسًا .. ربما هو أقرب إلى قرد عملاق .. لا أدرى بالضبط .. »

ارتجفت (إيناس) وهتفت وهى تجرع الشاى من قدحها :

ـ « أنا أيضًا ظفرت بذات الانطباع .. إنه ضخم .. لكنه لا يتحرك بهذا البطء المتوقع من حجمه .. »

كنت جالسًا جوار الأب .. فرأيته ينظر لى نظرة ذات معنى ، ثم يميل برأسه ليهمس فى أذنى :

ـ « لا داعى لأن تخبرهم بما وجدناه فى الكرار ! »

قلت هامسًا وأنا أرمق شحمة أذنه الحمراء التى تشى بالصحة :

- « ربما كان من الحكمة أن يعرفوا ما ينتظرهم .. »

- « لا داعى .. فى الصباح سأنهى الأمر مع المركز .. فلا تثر هلعهم .. »

سأل (عبد الرحيم) الأب ، وهو يشعل لفافة تبغ (واضح أن الرعب العام جعله ينسى أنه كان يتحاشى التدخين أمام من سيصبح حماه) :

- « هل هذا الشىء يظهر كثيرًا فى القصر ؟ »

- « بل هى المرة الأولى .. »

- « ولماذا اختار هذه الليلة بالذات ليظهر ؟ »

- « هذا ما نحاول معرفته .. »

كان الأب يعامل (عبد الرحيم) بتحفظ هو إلى (القرف) أقرب .. وأدركت من اللحظة الأولى أن الأب غير موافق على أن تتزوج ابنته هذا (الفلاح الخرسيس النرسيس) .. لكن الفتاة متمسكة بفتاها .. والفتى ليس سيئًا إلى هذا الحد ، ومن عائلة محترمة .. ربما هو أرقى (خرسيس نرسيس) يمكن العثور

عليه اليوم .. ولو انتظر الأب حتى يتقدم والى (الآستانة) للزواج من ابنته فلربما طال انتظاره نوعًا !

قال الأب بلهجة تقريرية وهو يجول بعينيه القويتين فى الحاضرين :

- « لقد جاء (الشىء) مع القادمين .. فهل من بينكم من يعرف عنه معلومة ما ؟ »

لم يرد أحد .. وتظاهرت أنا بالعثور على جسم غريب فى قدح الشاى .. إلى أن قال الأب بذات اللهجة :

- « حسن .. إن الحكمة تقضى بأن نقضى السويعات الباقية من الليل هنا .. ودون أن ينام أحد .. »

- « الرأى ما قلت .. »

ثم إن (محيى) قرر أن يدلى بدلوه فى الحديث .. وهذا النوع من البشر لا يحتمل أن يتهم بالصمت أو أنه لا يملك ما يقال :

- « من المؤكد لنا جميعًا أن هذا الشىء ليس لصًا .. بل هو ليس بشريًا أساسًا .. »

همهم الجميع موافقين .. فأردف فى تردد :

ـ « هل نبحث عنه فى الخارج ؟ »

ـ « كلا .. » ـ قال الأب فى حزم ـ « .. فالظلام مازال دامسًا والرؤية متعذرة .. وأنا لا أريد ضحايا آخرين .. »

ووضع على المنضدة أمامه مسدسه الألمانى العملاق ، ليكون فى متناول يده .. ولاحظت (مها) أن (محيى) يضع على الأريكة بندقية خفير عتيقة .. عرفت ـ دون شك ـ أنها بندقية (بسطويسى) .. ورفعت عينين متسائلتين نحو أبيها .. فبادلها نظرة مسكتة جعلتها لا تلقى أسئلة ..

بعد قليل عاد ثلاثة من الخدم ، وقال كبيرهم العجوز فى أدب :

ـ « كل شىء تمام يا سيِّدى .. القصر محكم الإغلاق .. »

ـ « والحجرة التى كان بها الأستاذ (سيد) ؟ »

ـ « أحكمنا غلق النافذة والباب »

ـ « لا بأس .. والآن ليحضر الجميع كى يجلسوا هنا معنا .. »

وبدأت الجلسة الطويلة ..

الثالثة والنصف صباحًا ..

ها نحن أولاء نقترب من (ساعة الذئب) .. أشنع ساعات الليل .. لكن ماذا يمكن أن يحدث ونحن محتشدون هاهنا ؟

أتراك تعرف ساعة الذئب يا د. (رفعت) ؟ بالطبع لا .. وبرغم هذا تسمح لنفسك بالحديث عن عالم ما وراء الطبيعة والأشباح ؛ كأنك عالم العلماء وفيلسوف الفلاسفة ..

فى ساعة الذئب يصير المرء فى أوهن حالاته .. الأزمات الربوية تزداد .. النوبات القلبية تكثر .. وفى هذه الساعة تبدأ غيبوبة نقص السكر .. ويغدو الجسد الإنسانى هشًا مباحًا لأى اعتداء مادى أو معنوى أو شيطانى ..

دعانا الأب لصلاة الفجر .. فنهضنا .. ولم يرغب أحدنا فى الانفراد وقت الوضوء ، لهذا توضأنا جميعًا فى ذات الوقت فى حمام جانبى أنيق .. وعلى سجادة فاخرة مكتنزة وقفنا نصلى ..

كانت فرصة ذهبية لأن بيننا من كاد يجن رغبة فى دخول الحمام لكنه كان يخشى الذهاب وحده .. ويخجل من طلب من يرافقه إلى هناك ..

بعد لحظات انقطع التيار الكهربى !

أطلقت النساء صرخة رعب .. وبعد ثوان رأينا اللهب يتألق من عود ثقاب أشعله (عبد الرحيم) .. فبدت الوجوه حوله كوجوه أشباح ..

وبصوت رزين قال الأب :

ـ « لا مشاكل .. هذا يحدث كثيرًا .. هات الشمعدان يا (سليمان) .. »

أحضر (سليمان) الشمعدان الفضى إياه .. وكان (عبد الرحيم) قد أشعل عود ثقابه الثالث .. فراح يمرّ به على الشموع حتى أضاءت جميعًا ..

ـ « هات (الكلوب) كذلك .. »

وجاء (الكلوب) وأشاع ضوءًا لا بأس به مع صوته المحبب للنفس .. حتى ذكرنى بباعة البطيخ الساهرين للصباح جواره ..

ـ « إذهبا لتريا ماكينة النور .. لعلها قد توقفت »

قالها الأب لخادمين .. ثم استرخى فى جلسته ، وراح يتأمل وجوهنا التى جعلها هذا الجو الدرامى كوجوه الموتى ..

مرّت هنيهة من الصمت ..

لا شىء سوى دقات الساعة الثمينة المعلقة فى مكان مميز من القاعة .. تلك الساعات التى لا يعلقونها إلا لإثارة الهلع فى الأفئدة ، وإحداث جو من الترقب الذى لا يُحتمل ..

فجأة سمعنا صرختين مرعبتين متحشرجتين قادمتين من الخارج .. وثبنا جميعًا كالبراغيث فى الهواء .. إلا الأب الذى بقى محتفظًا بوقار جلسته .. ورفع يده فى حزم ليمنعنا من الحركة :

ـ « ابقوا حيث أنتم !.. »

ـ « لكن هذا الصراخ .. »

ـ « بالتأكيد صراخهما ـ صراخ الخادمين ـ كنت أتوقعه وأنتظره .. »

ـ « لكن ما معناه ؟ »

ـ « لقد ظفر بهما ! »

ـ « يا للهول ! إذن هو ...... »

ـ « نعم .. إنه يحاصر القصر من الداخل والخارج .. وأراهن على أنه هو المسئول عن انقطاع الكهرباء .. »

ومطّ عنقه للأمام .. وفى خطورة أردف :

ـ « إنه ينوى إنهاء الأمر هذه الليلة ! »

* * *

٧ ـ الجاثوم ..

هل مازلت معى يا د. (رفعت) ؟

الظلام الدامس يعمّ القصر ، وضوءا الكلوب مع الشمعدان يحاولان تبديد هذا الديجور ..

بينما تسعة أشخاص يجلسون فى قاعة الجلوس الواسعة ، بأثاثها الفخم الذى يشى بعراقة الماضى .. لن أدهش لحظةً لو قيل لى إن (بونابرت) تمدّد على هذه الأريكة يبكى هزيمته فى (واترلو) ..

التسعة يملؤهم الرعب .. بينهم اثنان فقط يعلمان على وجه اليقين معنى ما يحدث .. أنا .. والأب الذى بدأت أتوجّس منه ..

تساءل (عبد الرحيم) فى عدم فهم :

ـ « من الذى تتحدّث عنه ؟ »

ـ « الجاثوم ! »

انتفضت من مقعدى .. فلا أحد سواى يعرف بوجود الجاثوم .. ثم إن الاسم نفسه محاولة غير

شائعة لترجمة لفظة Incubus اللاتينية .. ولو لم ألق الجاثوم مرارًا فى كوابيسى ، لما علمت بوجود هذا الاسم ..

إن هذا الأب يعرف الكثير حقًا ....

لم يظهر أحد علامة دهشة أو حيرة أكثر ..

فقال الأب وهو يصب بعض الشاى فى قدحه :

ـ « قبل أن نناقش المصير دعونى أحك لكم قصة مسلية .. القصة حدثت فى القرون الوسطى فى (أرمينيا) .. »

وأشار إلى (مها) كى تدنو لتجلس على الأريكة بجواره ، وطوقها بذراعه ليشعرها بالأمان .. كان جو الرعب السائد قد أزال الكثير من الشكليات الحساسة .. فهأنذا جالس جوار (إيناس) وقد تعانقت كفانا .. كفها الباردة ترتجف كهرّ رضيع فى كفى .. (محيى) كذلك جلس جوار (غادة) وأمسك بكفيها معًا ..

قال الأب بتؤدة ، وهو يرشف الشاى من قدحه ، ممسكًا القدح والطبق ككتلة واحدة بيمناه :

ـ « ... كان هناك رجل يدعى (إسماعيلوف) .. رزقه الله بطفل جميل سماه (ناصير) .. ، ولقد

مضت الحياة بشكل جيد حتى جاءت هجمة المغول على سهول آسيا الوسطى .. وكان أن سقط الطفل فى الأسر .. لم يكن آسره رجلاً رديئًا .. ولم يبعه عبدًا على الفور .. بل علمه الكثير من الأشياء .. ومن ضمنها علمه فنًا كاد أن يندثر .. فنًا من فنون المغول القديمة .. من الصعب وصفه .. لكن يمكن القول إنه لون من السحر الأسود .. سحر أسود قائم على تمزيق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم .. إنهم يسمون هذا الفن Necromancy لكنى لا أعرف كيف أترجمه للعربية إلا بعبارة (تمزيق الموتى) .. »

للمرة الأولى تدخلت فى المحادثة .. وهتفت :

ـ « هو كذلك .. (نكرو + مانسى) .. باللاتينية .. »

كان الكلام مألوفًا لى .. وعرفت أن اللغز الذى أنا بصدده قد بدأ يتضح .. سأعرف سرّ عذابى طيلة الشهور الماضية ..

واصل الأب سرد قصته للوجوه الممتقعة حوله :

ـ « حين يمتص الساحر عينى الميت يرى كل ما رآه .. وحين يمزق لسانه يتعلم لغته .. وإذ يلتهم مخه يعرف كل ما عرفه .. »



لكن يمكن القول إنه لون من السحر الأسود ..
سحر أسود قائم على تمزيق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم ..

- « يا للبشاعة ! »

قالتها (غادة) وهى تدارى وجهها فى كتف (محيى) ، الذى قال فى ضيق وهو يربت على شعرها :

- « ما لزوم هذا الكلام الآن ؟ ألا يوجد موضوع أكثر تسلية .. ؟ »

- « اصبر يا أستاذ (محيى) .. لا تقاطعنى .. أردت القول إن (النكرومانسى) - إذ يمزق مئات الجثث من كل البلدان - يتعلم كل شىء ، ويزداد حكمة .. يعرف مواضع الكنوز المدفونة .. وأسرار الأمم الغابرة .. وخبايا القلوب .. الخلاصة - لأكون موجزًا - هى أن الطفل صار شابًا يافعًا .. وخبيرًا فى فنون (النكرومانسى) .. كان هذا حين بيع - بعد وفاة سيده - إلى تاجر باعه فى مصر .. وسرعان ما انضم الصبى إلى طبقة المماليك .. المحاربين القادمين من وسط آسيا ليتم تعليمهم فنون السيف .. وتربيتهم تربية صحية دقيقة ؛ من ثَمَّ يغدون جنودًا أقوياء مهيئين للقتال .. وكان سهلاً أن تتكون منهم طبقة خاصة تحكم الشعب المصرى على استعلاء .. صحيح

أن (قطز) و (بيبرس) كانا مملوكين ، إلا أن أكثر هذه الطبقة كان وبالاً على الشعب المصرى ، وقد استطاع (نابليون) و (محمد على) أن يقضيا على هذه الطبقة تمامًا فلم تقم لها قائمة(*) .. »

وأردف قائلاً :

- « نعود إلى صبينا الذى جاء إلى مصر حيث تعلم أسرار القتال والسيف ، ولم يكن يتحدث العربية ، لكنه حاول تعلمها .. ولم يكف عن ممارسة (النكرومانسى) الذى علمه كثيرًا من أسرار الفراعنة والرومان .. »

« كبر الفتى وصار مملوكًا تقليديًا .. وكان العامة يسمونه (ناصر) .. لكنه اتخذ لنفسه اسمًا يليق به هو (عز الدين طومان) .. وأبلى بلاءً حسنًا فى القتال وبدأ يزداد ثراءً .. ثم تزوج .. وابتاع بيتًا فاخرًا فى الوجه البحرى ، وامتلك بضعة فدادين لا بأس بها أبدًا .. ولم ينس أن يعلم ابنه الأكبر

(*) يقتضى العرفان بالجميل أن نذكر أن المماليك هم من هزموا (هولاكو) ، وسحقوا الصليبيين ، وأسروا (لويس التاسع) .. وتركوا طابعًا لا يمحى فى عمران القاهرة بما فيه الأزهر .

ذلك الفن الرهيب (النكرومانسى) .. هذا الابن الأكبر هو من صار جدّ (كتخدا طومان) .. »

« كان (كتخدا طومان) رجلاً شريرًا غليظ القلب .. وكان يكره الفلاحين ، والفلاحون يهابونه .. ولم يكف عن ممارسة (النكرومانسى) فى أقبية داره حيث كان يكدّس الجثث ويستجوبها .. وكان هناك سرّ يثير شغفه بشدة هو الكابوس الحىّ : الجاثوم .. لقد تعلم السرّ من مومياء كاهن فرعونى من كهنة (أمنمحات) .. وطبقًا لهذا السرّ يمكنك أن ترسل وحشًا مريعًا إلى أعدائك ليجثم فوق صدورهم فى أثناء نومهم ويخنقهم .. »

« ويمكننا القول إن (طومان) قد نجح فى تحقيق غرضه .. إن كل أعدائه ماتوا وهم نيام .. لقد حرّر الجاثوم من أسره وجعله عبدًا خاضعًا له .. حارسًا شخصيًا لا يقهر ولا يرتشى .. »

« وفى اليوم الذى رزق فيه بطفله الأول (جمال الدين) - (جمازتدين) كما كانوا سيسمونه فى (أرمينيا) - تلقى دعوة إلى العشاء فى قلعة (محمد على) .. وكان حشد من المماليك مدعوًا إلى هناك(*)

(*) ١ مارس ١٨١١ م .

حسن .. لا داعى لسـرد القصـة .. فمذبحـة القلعـة معروفة لكل طالب فى الصف الإعدادى .. ولا داعى لأن أقول إن (طومان) تلقى ثلاثين طلقة ولم يمت .. فحمله الجند إلى الوالى الذى ذبحه بسكين الفاكهـة .. وهكذا تنتهى القصة .. وبيت (طومان) الفاخر سقط فى يد العثمانيين الذين بـاعوه لجدى النـازح من (الآستانة) .. »

وصمت هنيهة .. ثم رفع إصبعين من كفه ليشير إليهما :

ـ « هنا يبرز سؤالان مهمان : ماذا حدث لزوجة (طومان) وولده ؟ وأين ذهب الجاثوم ؟ إن ما لدى من وثائق يقول إن الزوجة فرت إلى الصعيد وتزوجت هناك .. وذابت فى زحام المصريين .. والولد كبر وتزوج .. وفيما بعد نزح ابنه إلى القاهرة .. وهو بالمناسبة يجهل كل شىء عن تاريخ أسرته .. »

هنا تساءلت (هويدا) فى هلع :

ـ « هل تعنى أن هذا (النكـ ..) .. (النكرو .....) »

ـ « (النكرومانسى) .. »

ـ « هل تعنى أنه كان يمارس هاهنا ؟ »

ـ « حتمًا .. فى الأقبية السفلى .. إن هناك دلائل تشير إلى هذا .. »

ـ « أ .. ألا يثير هذا ذعرك ؟ »

ـ « ولمه ؟ هذا قصر جدودى .. وأعتقد أن قرنين من الزمن كافيان لتطهيره .. لا بد أن هناك فظائع جرت على كل شبر من الأرض التى نمشى فوقها .. لكننا لا نعلم أو نتظاهر بعدم العلم .. »

ثم مطَّ عنقه إلى الأمام ، فبدا فى ضوء الشموع كثعبان عجوز يتلصص ، وتساءل :

ـ « هل من أسئلة ؟ لا ؟ حسن .. والآن دعونا نر صورة زيتية قديمة لـ (كتخدا طومان) .. إنها فى ألبوم صورى .. »

وأشار إلى (مها) فنهضت تحضر ذلك الألبوم القديم الذى كانت تتفاخر به فى بداية الأمسية ..

ـ « شكرًا يا (مها) .. والآن اقتربوا أكثر لتروا ما أعنيه .. »

زحفنا دانين منه كالأرانب التى تمطّ أنوفها متشممة أقدام غريب .. وعلى ضوء الشموع المتراقص تبينّا صورة تمثل أحد لابسى العمامة كثّى اللحية .. صورة

رجل غير مصرى وغير عربى عمومًا .. أقرب إلى الصور التى نراها لـ (محمد على) فى كتب التاريخ المدرسية ..

كانت نسخة فوتوغرافية لصورة زيتية ، وإن كانت الصورة الفوتوغرافية ذاتها عتيقة جدًا ؛ تنتمى لزمن كانت الكاميرا تسمى فيه (الفوتوغرافيا) .. وكانت فكرة الاستعاضة عن ألواح الزجاج بفيلم من (السليولويد) هى نوع من الهرطقة الفكرية ..

ـ « هل ترون هذا الوجه ؟ »

ثم مدّ إصبعًا يدارى به العمامة .. وإصبعًا يدارى به اللحية ..

ـ « هل الشبه أقرب هكذا ؟ »

ـ « لا ! »

قالها المجتمعون وقد حاولوا التركيز قدر جهدهم .. ومالت (غادة) برأسها زاوية قائمة محاولة أن ترى أفضل ..

قال الأب دون أن يقنط :

ـ « أما زال الأمر عسيرًا ؟ إن العرق دسّاس .. هذا مؤكد .. ألا تميزون هذا الأنف .. وهذين الحاجبين ؟.. ألا تميزون هذا الثغر الصارم ؟ »

قال (الشمندورى) فى ملل :

ـ « ليكن .. ماذا تريد قوله ؟ »

ـ « أريد أن أقول أن (كتخدا طومان) هو الجد الأكبر لواحد من الجالسين هنا .. واحد عاد لقصر جده بعد أعوام طوال ، وهو لا يعرف شيئًا عنه .. واحد يتشدق بأجداده الفلاحين ولا يعرف أن جده وافد على هذه الأرض من (أرمينيا) .. واحد يعرف الآن أننى أتحدث عنه .. وقد فهم كل شىء قبلكم .. »

والتقت ثمانية أزواج من العيون على وجهى ..

وسمعت الأب يتساءل فى تؤدة :

ـ « أليس كذلك يا أستاذ (هـ) ؟ »

* * *

٨ـ التفسيـــر ..

اعتادوا أن يسموا مصر (البوتقة التى ذاب فيها الوافدون عليها .. وانصهروا) .. أما أنا فأعتبرها خلاطًا للعصير .. أنت تضع فى الخلاط السكر والماء والليمون .. فتحصل على سائل يُدعى (الليمونادة) .. وحين تتفحص قطرة من (الليمونادة) يستحيل عليك أن تعرف ما إذا كان أصلها سكرًا أم ليمونًا أم ماءً ..

كيف كان لى أن أعرف أننى ممن ذابوا فى البوتقة .. وداروا فى الخلاط وسط دواماته المجنونة ؟!

* * *

كان علىّ أن أتكلم .. فقلت باستخفاف :

ـ « كل هذا جميل .. لكنه قائم على الحدس ويستحيل إثباته .. إن الشبه بينى وبين الصورة لا يزيد على الشبه بينى وبين (سعاد حسنى) .. »

قالت (إيناس) بلهجة التعقل :

ـ « الواقع أن الصورة تشبهك حقًا يا (هـ) .. تشبهك كثيرًا .. »

ـ « وحتى لو كان هذا صحيحًا .. فما جدواه هاهنا ؟ »

قال الأب وهو ينحى ألبوم الصور جانبًا :

ـ « هذا هو بيت القصيد .. الحفيد الحىّ لـ (كنتخدا طومان) هاهنا .. وفى ذات الليلة تحدث أشياء غير عادية .. إن كل هذا يشير إلى شىء مؤكد .. إن القصر ينتظرك .. »

قلت فى عصبية وقد اتخذت برغمى موقف المدافع عن نفسه :

ـ « ولماذا ينتظرنى ؟ »

ـ « يا له من سؤال !! للانتقام طبعًا ! إن جدك حرّر الجاثوم من معقله وجعله عبدًا خاضعًا له .. بعد كل هذه الأعوام ظل الجاثوم هائمًا كشبح .. عاجزًا عن العودة إلى حيث جاء .. عاجزًا عن الفعل .. كان بحاجة إلى قدومك كى يفنيك .. وبعدها يغدو حرًا ! »

ـ « ومن قال لك هذا الكلام الفارغ ؟ »

حكّ أرنبة أنفه فى إنهاك .. وقال :

ـ « الجاثوم قال لى ! »

ـ « هل هو معتاد السهر هنا معك ؟ »

قال وهو يضع ساقًا على ساق :

- « ليس بهذا المعنى الحرفى .. أنت تعرف مثلما أعرف أن الجاثوم كائن مزيج من الحلم والحقيقة .. إن الكوابيس هى مملكته الصارمة التى يعرف كل شبر فيها .. وقد رأيت فى الكابوس كل شىء .. كل شىء .. ووجدتنى تحت ضغط نفسى هائل يرغمنى على أن .. »

ثم نظر إلى (مها) المحتمية به كعصفور جريح .. وأردف :

- « على أن أدعو أصدقاء (مها) إلى قصرى ! »

نهضت واقفًا .. وأشرت إليه فى عصبية :

- « إذن أنت جزء من هذا الفخ .. لم تكن هذه دعوة بل كانت كمينًا ! »

- « هو ما تقول .. كمين .. لكننى كنت مرغمًا عليه .. لست أنت (المسيح) ولست أنا (يهوذا) .. فلا تندمج فى هذه المسرحية .. ثم إن هناك آخرين زارهم الجاثوم ودعاهم إلى اقتيادك ها هنا .. »

ونظر برفق إلى (مها) .. وسألها :

- « أليس كذلك يا (مها) ؟ »

قالت (مها) وهى ترتجف :

- « بلى .. أمرنى فى المنام أن أدعو (إيناس) وصديقها ! »

التفت الأب إلى (إيناس) وسألها كأنما يؤدى دورًا مرسومًا :

- « وأنت يا (إيناس) ؟ »

قالت (إيناس) محاولة تحاشى نظراتى :

- « نعم .. لا أدرى حقًا ما دهانى .. شعرت بحاجة ملحة إلى دخول السينما لمشاهدة فيلم (الرقص على الهيدروجين) .. لست معتادة الحديث مع الغرباء لكنى وجدت نفسى أثرثر مع الجالس جوارى ! »

صحت فى هلع وأنا أضرب الأرض بقدمى :

- « حتى أنت يا (إيناس) ؟ حتى أنت ؟! »

- « إهدأ يا (هـ) .. لا يوجد (يهوذا) بيننا كما قلنا لك .. كنا جميعًا نتحرك دون أن نعرف لماذا نفعل ذلك .. »

ثم أردفتْ وهى مصرة على تحاشى نظراتى :

- « ثم .. ألم يجل بخاطرك أن الطبيب النفسى زاره فى المنام من يدعوه إلى أن ينصحك بالسفر للإسكندرية ؟ »

وأضاف الأب وهو يثبت عينيه فىّ :

- « لقد قمت بفحص السيارة بنفسى .. ووجدت

جزءًا مهمًا تم إتلافه عمدًا فى الموتور .. أظن أن السائق رأى شيئًا ما فى الحلم ليلة أمس ! »

– « ... وماكينة النور .. إن المصادفات لا تحدث بهذا السخاء »

صرخت فى جنون وأنا على وشك التحول إلى مجذوب حقيقى :

– « إلى هذا الحدّ ؟ مستحيل ! إن هذا كابوس .. بل هو أسوأ من أى كابوس رأيته .. »

وهرعت لأمسك بمعصم (إيناس) فى قسوة ، لكنها لم تبد مقاومة :.

– « إذن لم يكن هذا حبًا ؟ »

قالت متهالكة والدمع يغمر وجهها :

– « إلا هذا .. لقد أحببتك حقًا والله على هذا شهيد .. »

هتف الأب بصرامة :

– « لا داعى للغلظة يا (طومان) ! »

(طومان) ؟ أنا (طومان) ؟ يصعب علىّ ابتلاع هذا الاسم ..

أردف الأب :

– « لم يكن هناك من يبغى الإضرار بك .. كل واحد فينا وجد نفسه مدفوعًا لعمل صغير برىء .. لكن هذه الأعمال الصغيرة البريئة احتشدت فى نسيج واحد كبير .. هو اقتيادك إلى الفخ بكامل إرادتك .. »

– « حقًا .. إن هذا الوغد يخطط جيدًا ! »

– « والآن .. هذا القصر كله تحت سيطرة الجاثوم .. أنتم جميعًا رأيتم تمثاله على رف مدفأة كل منكم .. لم أستطع أنا ولا سواى الخلاص من هذه التماثيل .. إن لها لخاصية غير عادية .. ما إن تهشمها حتى تعيد تشكيل نفسها .. وقد نحتها فنان إنجليزى يدعى (سمبسون) لمالك القصر منذ أعوام طوال ، تخليدًا للرعب الذى يحكم هذا المكان .. »

بعد برهة من الوقت لم تعد ساقاى تتحملان .. كان كل هذا يفوق تحمل جهازى العصبى .. فجلست على الأريكة .. ثمة رجفة لا أستطيع إيقافها فى ركبتى اليسرى .. أمسكتها بمجمع كفى كى أسكتها ..

وبصوت مبحوح تساءلت :

– « لماذا أنا بالذات ؟ »

– « لماذا أى شىء ؟ »

ـ « لـ .. لماذا اختارنى ؟ لم يمر جدّ من أجدادى بتجربة كهذه .. »

ـ « لأنك لا تنجب .. ولن تنجب .. وهذا معناه أنك آخر سلالة (طومان) علـى وجـه الأرض .. إنها فرصته الأخيرة للانتقام قبل أن تموت ميتة عادية باسمة لو كان هناك شىء كهذا .. »

رفعت عينىَ إلى الوجوه الثمانية المحملقة فىَّ .. وتساءلت :

ـ « حسن .. والآن ما هو المطلوب منى ؟ »

* * *

قال الأب :

ـ « لا يوجد شىء مطلوب منك .. إن (الجاثوم) يريدك أنت .. أما نحن فمجموعة من المتفرجين بلا دور .. وجودنا جوارك خطر داهم علينا .. أما ابتعادنا عنك فآمن لأن (الجاثوم) يبحث عنك وحدك ..

« سنرحل الآن .. نخرج إلى العراء ونتحسس طريقنا باحثين عن دار فلاح يقبل استضافتنا .. إن النهار قريب .. وليس من العسير أن نظل أحياء حتى يتبين الخيط الأبيض من الأسود ..

« لكنك لن تتبعنا يا (هـ) .. ستبقى هاهنا .. ولسوف يبقى (الجاثوم) معك لأنه لا يعبأ بنا .. لو حاولت أن تأتى معنا بالقوة سأمنعك بمسدسى .. ولن أتورع عن تفجير رأسك .. هل أبدو مازحًا ؟

« القصر قصرك .. وهذه ليست مجاملة .. إنه بيت جدك المملوك الذى شيَّد كل حجر فيه .. كل غرفة هنا تخصك .. يمكنك فتحها أو غلقها .. لديك مخزون كبير من المشروبات والمأكولات .. فلا تدع الحياء يقتلك جوعًا أو ظمأ ..

« استخدم عقلك .. وحاول أن تسترجع من خلايا مخك القديمة أسرار جُدودك .. وكيف كان المملوك الأرمينى يستطيع السيطرة على وحش كهذا .. »

ثم التفت إلى المجموعة المحيطة به .. وهتف :

ـ « هيّا يا أبنائى ! ولسوف نعود هاهنا مساء غد .. »

كـانت هنـاك بعـض الغوغائيـة .. فقـد راح (الشمندورى) وزوجتـه يعترضـان فـى عصبيـة .. وقالت (هويدا) :

ـ « لن نتركه هنا .. إنه منا .. »

وقال زوجها :

ـ « هذا حق .. القصة كلها خرافة .. »

قال الأب فى حزم ، وهو يتجه إلى الباب بتؤدة والشمعدان فى يده :

ـ « كما تريدان .. من شاء البقاء فليبق .. لا إرغام هنا .. »

ووراءه مشى (عبد الرحيم) و(مها) و(محيى) .. بقعة اللهب ترسم أربعة ظلال عملاقة مبتعدة على الأرض ..

تبادلت (هويدا) وزوجها النظرات .. ثم ـ دون كلمة أخرى ـ تخليا عن شجاعتهما .. فهرعا يلحقان بالموكب المبتعد ..

كانت (إيناس) جالسة جوار (الكلوب) المتأجج .. ومازالت كفها اليمنى على خدها ، وقد جفت الدموع لكنها تركت أخاديد من الملح على وجنتيها ..

نظرت لوجهها الذى أظلم نصفه والتهب نصفه .. وسألتها :

ـ « وأنت ؟ ألن تلحقى بهم ؟ »

ـ « .... »

ـ « إن اجتماعهم قوة .. »

عيناها صارتا ذهبيتين تمامًا فى اللهب .. وقالت فى تراخ :

ـ « لا .. أنا باقية معك .. »

ـ « إن الخطر سيكون جسيمًا .. خطرًا يفوق الوصف .. »

ـ « الخطر الذى يفوق الوصف هو أن أسمع صراخك .. وأنا آمنة على بعد نصف كيلومتر من هنا .. »

نهضت متثاقلاً لأجلس جوارها ..

أنفاسى تتلاحق متقطعة قصيرة .. وشعرت بأناملها تتحسس وجهى ..

ـ « أنت تبكى يا حبيبى ؟ »

ـ « نـ .. نعم .. أنا .. أنا خائف .. خائف من الظلام ! »

وانفجرت باكيًا ..

لا أدرى ما قالته لى ولا ما فعلته .. كل ما أذكره أننى تحولت إلى طفل كبير تهدهده أمه وتخبره أن الغد أفضل ..

وحين انتهت عاصفة الدمع كنت قد صرت أقوى ..

قالت لى وهى تمسك كفى فى حزم :

ـ « هلم .. لا شىء يرغمنا على البقاء هنا سوى كلام هذا الإقطاعى المخبول .. فلنغادر المكان .. »

ـ « لكن الـ .. الجاثوم ...... »

ـ « لو كان حقيقة فهو سيجدنا فى جميع الحالات .. سواء هنا أو فى طريق الهروب .. »

ـ « (إيناس) .. »

ـ « نعم .. »

ـ « أنا أحبك .. »

ـ « وأنا شرحه .. لكن الوقت غير مناسب لتمثيل فيلم (الشموع السوداء) .. وبالمناسبة لم أر مشهد حب على ضوء (كلوب) فى حياتى .. »

ـ « هل تتزوجيننى ؟ »

قالت فى مرح عصبى وهى تتحاشى عينى :

ـ « اسمع .. أنت الآن مضطرب نفسيًا .. وقراراتك ليست قراراتك .. فيما بعد حين تتحسن الأمور يمكننا أن نناقش هذا .. »

ـ « أنا لا أنجب .. »

ـ « لم أطلب تقريرًا صحيًا عنك .. هلم نغادر المكان قبل فوات الأوان .. ليت النهار يأتى .. »

ـ « إن ليل الشتاء طويل كمعلقات الجاهلية .. »

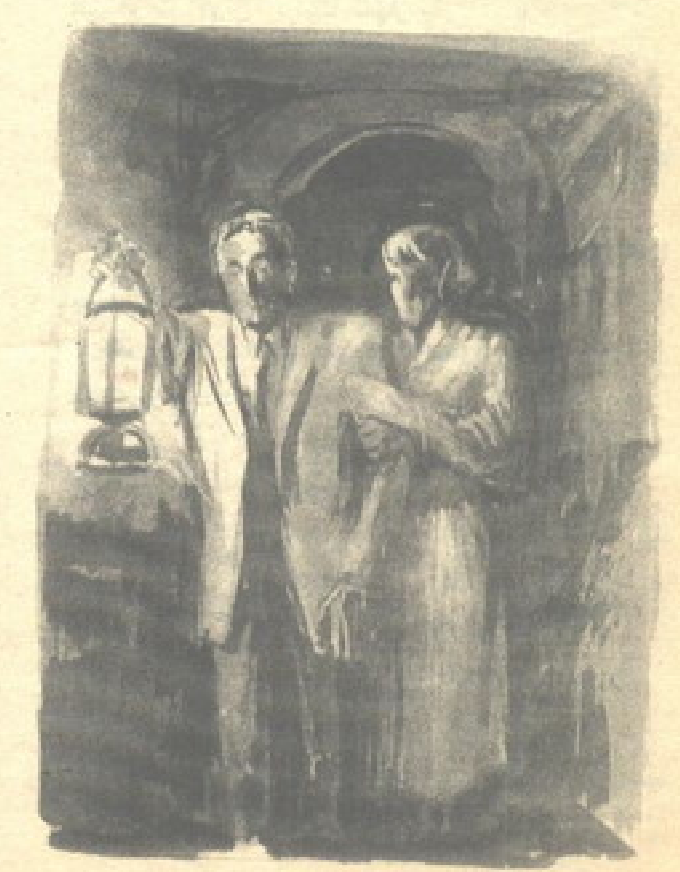
وحملت الكلوب فى يدى .. وتشبثت هى بذراعى الأيسر .. ورحنا فى تؤدة نمشى .. بقعة من الضوء تبحث عن مخرج ..

ولم نشأ أن ننظر إلى الوراء .. إلى حيث كنا جالسين ..

آخر أحفاد (كتخدا طومان) يحاول الفرار بأى ثمن من قصر أجداده ..

....

* * *



وحملت الكلوب فى يدى ، وتشبثت هى بذراعى الأيسر ..

٩ - فـى المصيـدة ..

هى ذى المسيرة الكلبية تتجه فى بطء جنائزى إلـى الدرج ..

خطوة تتلوها خطوة ..

ومن عل ترى الطابق الأول يتلاعب بالظلال .. كأن كل جماد فيه قد تحرر وظفر بحياة خاصة به ..

حرارة (الكلوبَ) تحرق جانب وجهى الأيمـن ، والبرد يلسع جانبه الآخر .. واليد المرتجفة لـ (إيناس) تزيد الأمور سوءًا ولا تحسنها ..

هو ذا الطابق الأول ..

كل شىء كما كان .. لم يتبدّل شىء .. فهنا جلسـنا والتهمنا غداءنا وعشاءنا وثرثرنا ..

لكن الباب الذى رأيته فى الكوابيس مرارًا كـان هناك .. وكان مواربًا ..

فى صوت مبحوح قلت لـ (إيناس) وأنا أشير إليه :

- « هذا الباب .. »

خرج صوتى عاليًا برغمى .. لماذا تعلو الأصوات فى الظلمة إلى هذا الحدّ حتى لتثير هلعك أنت المتكلم ؟

لهذا خفضت من طبقة صوتى قليلاً .. وقلت :

- « هذا الباب .. فتحته فى الحلم فرأيت الجاثوم ينتظرنى وبدأت المطاردات الرهيبة .. كان خطئى أننى فعلت .. والبارحة .. هل هى البارحة ؟ »

وأصابنى ذلك الارتباك الذى يحدث حين تظل ساهرًا يومًا كاملاً .. فتتذكر أحداث النهار شاعرًا بأنها بالتأكيد حدثت فى ذات اليوم .. ثم تتذكر أن الليل قد انتصف وأن هذا حدث أمس ..

واصلت الكلام متغلبًا على هذا الخلل البيولوجى :

- « ... البارحة .. دفعنى الفضول لمحاولة فتح هذا الباب من جديد فى الواقع .. لكنكم جئتم .. فتركته .. وبعد قليل وجدته مواربًا .. كأن شيئًا ما كان ينتظر حتى أفتح له .. »

تساءلت (إيناس) وهى تواصل السير المتمهل :

- « ولكن هذا الـ .. الجاثوم كان يزورك قبل أن تجىء هاهنا بوقت طويل .. أى أنه كان يملك حرية الانتقال .. فلماذا تظن أنك حررته ؟ »

- « حرّرت وجوده المادى .. وكان قبل هذا حرًا على المستوى المعنوى .. فكان يزورنى آخر الليل .. ويجعلنى أعيش كوابيس مريعة معه .. ثم يرحل تاركًا فى فراشى تذكارًا يملؤنى فرقًا ، ويخلخل علاقتى بالواقع .. لكنه الآن قد تحرّر ماديًا .. صار فى عالمى حقًا .. وهو يريدنى .. بكل خلية فى جسده لو كان فى جسده خلايا .. »

ثم بللت شفتى الجافة بلسانى .. وهمست :

- « مازلت أتوقع أن أصحو صارخًا لأجد نفسى فى فراشى .. وأدرك أنها حلقة جديدة من سلسلة الكوابيس إياها .. »

- « كم أتوق لهذا .. لكن للأسف .. كل شىء يبدو حقيقيًا .. لا داعى لأن نتعلق بأمل واه كهذا .. »

كنا قد وصلنا إلى الباب ..

وعلى ضوء (الكلوب) حاولت فتحه عدة مرات لكنه لم يستجب .. كان موصدًا بإحكام .. قلت فى حنق :

- « لقد حبسنا أبو (مها) هاهنا .. ذلك الوغد ! »

قالت وهى تشير إلى المزاليج المغلقة :

ـ « لا تظلم الرجل .. تأمل ! الباب مغلق من الداخل ! »

أزحت المزاليج جانبًا ـ وعددها أربعة ـ ثم حاولت فتح المقبض من جديد دون جدوى ..

ـ « بالتأكيد هو موصد بالمفتاح كذلك .. إننا حبيسان هنا .. »

ثم غمغمت من بين أسنانى :

ـ « لا أحب هذا ..

كانت هناك نافذة فى جزء من القاعة ، لكنها كأى نافذة طابق أرضى كانت مسدودة بالقضبان الحديدية ..

قلت لها بعد تفكير :

ـ « سنصعد إلى أعلى حيث النوافذ غير مدعمة .. ثم نهبط إلى أسفل متعلقين بحبل أو شىء من هذا القبيل .. »

ـ « هذا جميل .. ظننتك تدرّس الرياضيات لا الألعاب الرياضية .. »

ـ « أنا كذلك .. لكن لو كان لديك حلّ آخر فلا تبخل به .. »

وفى خطا حثيثة عدنا أدراجنا ..

صعدنا فى الدرج إلى الطابق الثانى .. وكانت الغرف كلها مفتوحة مباحة بعدما هجرها أصحابها ..

غرفة الفتاتين : (إيناس) و (غادة) ستكون مناسبة حتما ..

ودخلنا .. ومشيت إلى النافذة ففتحتها ليدخل هواء الليل البارد المرجف .. ومعه دخل الظلام الأخير .. الظلام المنهك المميز لآخر الليل .. ثمة ديك يصيح فى مكان ما من العزبة ..

سألتنى (إيناس) وهى تمسك (الكلوب) :

ـ « ألا ترى أنه من الحكمة أن نتريث ؟ لعل الفجر يسبقه ؟ »

ـ « لا أظن .. »

ونظرتُ خارج النافذة عَبْر طبقات الظلام الكثيفة ..

نعم .. هناك ماسورة صرف تهبط بمحاذاة النافذة .. لن يكون الأمر عسيرًا .. فقط لو أن أبى علمنى (الهجامة) وسرقة المنازل بدلاً من إعدادى لأكون مدرسًا محترمًا ..

لكن كل شىء كان يقول لى أن أحاول ..

شىء ما قال لى : إن مصير السقوط من علٍ ليس أسوأ مما ينتظرنى هنا لو لم أحاول ..

ولكن (إيناس) ..!

لن أتركها وحيدة فى الغرفة .. ولن أجعلها تهبط قبلى لأستمتع برؤيتها تصرخ وهى تسقط من علٍ ، لتتهشم إلى ألف شلو ..

قرأتْ أفكارى فقالت وهى ترفع (الكلوبَ) :

ـ « أنا سأكون بخير .. إنه يريدك أنت .. وربما كان ابتعادك عنى هو الضمان الوحيد لسلامتى .. »

كلام معقول ولا ريب .. أو هكذا خيل إلىّ وقتها .. إننى غدوت كنافخ الكير ـ فى الحديث الشريف ـ الذى لا بد أن يؤذى من معه بلهيبه أو ريحه الكريهة ..

تعلقت بحافة النافذة ووضعت قدمى على إطارها ..

ـ « كـ .. كن حذرًا ! »

لكن نظرة حازمة من عينى أخرستها .. أنا أعرف كيف تتكفل هستيريا النساء بإفساد الأمر بالنسبة للرجال .. كل ما أحتاج إليه هو صرخة غير متوقعة كى تفلت يداى وينتهى كل شىء ..

وكأنما تداركت خطأها .. عادت تصلح ما كان :

ـ « لكن .. لكن .. هيا .. والله معك .. »

أنا الآن خارج النافذة .. أمدّ يدى ببطء .. ببطء إلى ماسورة الصرف .. وأخطو بضع خطوات جانبية ..

أما (إيناس) فأخرجت جذعها بالكامل من النافذة ، والكلوبَ فى نهاية ذراعها محاولة جعل الرؤية متاحة لى .. سيكون التمسك بالماسورة ممكنًا .. لكننى ـ بعد أن أهبط أربعة أمتار ـ سأغرق فى الظلام الدامس .. وعلى أن أتحرك مهتديًا بالجاذبية الأرضية لا أكثر ..

أخيرًا أمسكتها .. باردة كالثلج ، رطبة كبطن ضفدع ، زلقة كأرضية الحارة التى نشأت فيها .. لكنى أمسكتها .. لففت ذراعى وساقىّ حولها وشرعت أهبط ..

قلبى يرتجف فى ضلوعى .. لكننى أشعر بكعب حذائى يلمس هذا البروز الواصل بين أجزاء الماسورة ، وهو يصلح كمحطة ارتكاز ..

أستجمع أنفاسى وأواصل الانحدار لأسفل ..

ومن أعلى يبرز لى وجه (إيناس) والمشعل فى يدها .. كشمس تطمئن على سلامتى .. وجهها يصغر .. ويصغر .. ثم .....

سمعتها تصرخ !

كانت تنظر إلى الوراء .. إلى داخل الحجرة وتصرخ كأن هناك من ينتزع كبدها حية ..

وإلى جوار رأسى طار جسم مشتعل ما لبث أن هوى .. ليتهشم على الأرض .. وتنتثر منه النيران .. وتلتهم بعض الأعشاب ..

لقد سقط (الكلوبْ) من يدها حين .. حين داهمها من الخلف ..

وهأنذا معلق وحدى فى الظلام الدامس .. أصرخ :

ـ « (إينااااس) ! »

أصرخ حتى تنزف الشرايين فى ملتحمتى .. وتنفجر أوردة عنقى .. وتتمزق أوتار حنجرتى :

ـ « (إينااااس) ! »

محرومًا من الرؤية .. محرومًا من الأرض الثابتة .. محرومًا من المعرفة .. لقد حدث شىء مريع هناك .. لكن ما هو ؟

ـ « (إيناااااااااااااااس) ! »

كانت هذه آخر صرخة فى رصيد حنجرتى .. بعد

هذا صارت فى حاجة إلى قرض كى تستطيع إصدار صرخات أخرى ..

بعدها تخلت يداى عن الماسورة .. لم يعد ثمة مبرر لاستمرار إرادة الحياة فى السيطرة .. وقلت لنفسى إن هناك احتمالاً لا بأس به أن أهلك .. لكن الاحتمال الأكثر إرعابًا أن أظل حيًا مهشم الأوصال بانتظار الشىء ..

الخيار غير متاح ..

للحظات استمر السقوط .. ثم هأنذا ملقى على الأرض فوق كومة من الأعشاب الجافة .. لم أمت ولم أتهشم .. يبدو أننى كنت قد دنوت جدًا من الأرض ـ مترين أو أكثر قليلاً ـ حين صرخت (إيناس) ..

ونهضت .. ثمة رقعة من الأعشاب الجافة تشتعل جوارى ورائحة الكيروسين تتصاعد منها .. مددت يدى إلى عصا خشبية وجدتها هناك .. ولففت حزمة من العشب الجافّ حول طرفها .. ثم دفنتها فى النيران أقتبس منها جذوة ..

هذا المشعل يكفينى إذن ..

ومترنحًا لاهثًا رحت أدور حول القصر .. لا بد من مدخل .. لا بد ..

إن عقلى الباطن يقول لى كلامًا مثيرًا .. كلامًا عن غطاء معدنى فى الأرض له مقبض وتكسوه الطحالب والأعشاب .. كأنه غطاء مجرور منسى .. وعقلى الباطن لا يكذب .. إنه سمع بعض خلايا مخى تهمس بهذا السرّ .. خلايا تحمل صبغيات مملوكى من (أرمينيا) اسمه (كتخدا طومان) ..

إن القصر قصرى .. ولا بد أننى أعرف كل ركن فيه .. فقط لا أعرف أننى أعرف ..

* * *

« استخدم عقلك .. وحاول أن تسترجع من خلايا مخك القديمة أسرار جدودك .. »

* * *

هى ذى الفتحة .. حتمًا لم يرَها أحد من قبل .. ربما من مارس ١٨١١ عندما حدثت المذبحة .. ترى هل تستجيب ؟

الغطاء ثقيل .. هه ! هه ! وضعت المشعل مستندًا للجدار .. ورحت أجذب المقبض بكلتا يدىّ .. هاهو ذا !



الغطاء ثقيل .. هه ! هه ! وضعت المشعل مستندًا للجدار .. ورحت أجذب المقبض بكلتا يدىّ .. ها هو ذا !

ترى هل استعملت هذا المدخل فى أحلامى ؟

لا أذكر .. لقد حلمت مائة حلم ، استعملت فيها مائة مخرج ومدخل سرّى ، لأفر من مائة خطر ..

توجد درجات فى جانب النفق .. بالتأكيد ..

سأهبط فيها حاملاً المشعل ..

إن هى إلا ثوان وأصير فى قلب قصر أجدادى .. فى قلب السرّ ذاته .. ولسوف يجدنى الجاثوم حتمًا .. وعندها ......

* * *

هذه المرة لم يعد الخوف يحركنى بل الغضب ..

هذا الجاثوم الأحمق المتعصب الذى جاء ليفسد حياتى ، ويعكر عملى وحياتى الأسرية وحبى وكل شىء .. لماذا ؟ لأية جريرة ؟

لأن جدى كان ساحرًا شريرًا .. وماذنبى أنا ؟ أنا الذى أخشى أن أقرأ كتابًا عن السحر لمجرّد الفضول ..

(لا تزر وازرة وزر أخرى) .. هذا هو منطق الدين المحكم القويم .. لكن الجاثوم لا يعرف المنطق .. إنه الشر والحقد مجسدين ..

لماذا أدفع الثمن ؟ لماذا تتعذب تلك الفتاة البائسة ؟

الإجابة على هذه الأسئلة تفعمنى غضبًا ورغبة فى التدمير ..

* * *

كنت فى القاعة الواسعة إياها ..

القاعة التى كنت أصلها متدحرجًا فوق المنحدر ، بعد عبورى للكوة .. وكان بوسعى الآن أن أرى القدر المقلوب إياه .. وحوله العظام المتناثرة .. إن هذا هو عرين (النكرومانسى) ..

كانت هناك منضدة حجرية عريضة .. لا أذكر أننى رأيتها من قبل .. ورأيت معلقًا فوقها خطافين .. خطافًا يتدلى منه منشار ضخم .. وخطافًا يتدلى منه فأس وسكين عملاقة ..

وعلى ضوء المشعل رأيت

(يجب أن أجد مشعلاً آخر قبل أن ...)

ثلاثة أجسام ممدودة فوق المنضدة الحجرية ، التى لم تكن فى الواقع سوى

(.. ينطفئ هذا .. وعندها أغدو أعمى ..)

منضدة تشريح بدائية .. وميزت جسدىْ رجلين ممزقين .. خادمين على وجه الدقة .. وجسد امرأة .. فتاة على

وجه الدقة .. (إيناس) إذا توخينا الحرص الشديد ..

ـ « هاااه هاه هاه هاه هاه ! »

اهتزّ القبو كله بصدى ضحكاتى الهستيرية ..

آهاه هاه هاه هاه ! هاه هاه هاه هاااا » !

الجاثوم يؤدى عمله جيداً .. يستعيد الأيام الخالية ..
هاه هاه ! إنه يقول لى : ستعود الساعات الحلوة من
جديد ! هأنذا قد أعددت الجثث ـ حصيلة الليلة ـ كى
تمارس عليها ألاعيب (النكرومانسى) .. لقد كنت
أفعل هذا لجدك .. ولا أرى ما يمنع من أن أفعله
معك .. صحيح أننى أكرهك .. صحيح أننى سأبطش
بك .. لكنى ملتزم بأداء واجبى قبل كل شىء ..

صحت فى حنق بأعلى صوتى :

ـ « وأين الخفير أيها الغبى ؟ »

الخفير ؟ الخفير لم يتبق منه شىء .. أنت رأيته
فى غرفة الكرار .. هل نسيت ؟ للحظة حسبتَه ثمرة
طماطم وحسبتَ أننى مكلف بتحويله إلى صلصة .. كان
هذا خطأً .. كنت متحمساً كما تعلم ..

هاه هااااه هاه !

وهنا توقفت عن الجنون ..

شعرت بشىء يتحرك خلفى فاستدرت ..

كان الجاثوم قادماً نحوى ..

إنها المرة الأولى التى أراه فيها وأنا متيقظ ..
فكيف أصفه لك ؟

كان .. كالجاثوم فى كل شىء ..

* * *

١٠ - أنـا والجـاثـــوم ..

ربما كانوا صادقين حين وصفوه بقرد عملاق ..
وأنا صادق حين رأيته شبيهًا بأصنام الجاهلية الأولى ..
فهو شيء بلا ملامح .. كتلة من السواد المبهم ..
لكن له ما يشبه قدمين يمشى عليهما .. وما يشبه يدين يلوح بهما متوعدًا ..

ولم يكن له صوت .. بل هو يئزّ كمحرك الثلاجة كما عرفته دائمًا ..

أما عن حجمه .. فهو متغير .. تارة يتضخم - حين يثور - ليملأ المكان .. وتارة يضمر حتى يصير ارتفاعه ثلاثة أمتار لا أكثر ..

كان ابن الظلام وجزءًا منه ..

لهذا لم يكن ضوء المشعل يصل إليه أبدًا .. دائمًا هو في الركن المظلم من المكان .. يتشكل حسب الظلّ ..

كان كابوسًا حيًا ..

كان هو قاتل (إيناس) ..
كان هو المسئول عن جنوني وتفكك بيتي ..
كان المسئول عن مبيتي في المقهى كل ليلة ..
كان هو من يدس المشاعل والعظام في فراشي ..
كان هو من جعل آخر الليل أسوأ ساعاتي ..
كان هو .... الجاثوم ..

* * *

مددت يدى إلى جيبي .. كانت الرقاقة النحاسية هناك .. الرقاقة التي وجدتها في التمثال والتي حفرها السيد (سمبسون) يومًا ما عام ١٨٠٣ .. ماذا فيها ؟ لا أدرى .. لكنه يستحق المحاولة ..

لا أذكر الكلمات اللاتينية .. لكنها كانت شيئًا كهذا :
« كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس »
قرأتها بصوت عال .. وأعدت قراءتها مرارًا ..
فماذا حدث ؟
رأيت الشيء يهدأ ويبتعد قليلاً ..
إذن فهذه الكلمات نوع من التعويذة .. تعويذة ترغم الشيء على عدم إيذاء سكان القصر .. لهذا هي مدفونة في كل تمثال في كل حجرة هنا .. صحيح أنه

هاجم بعضنا ، لكن ربما كان هذا لأن التعويذة لم تكن فى تماثيلهم .. من يدرى ؟ ربما أبقى (كتخدا طومان) بعض الغرف دون تعاويذ لينام أعداؤه فيها .. ويفتك بهم الجاثوم ..

هذا ممكن جدًا ..

لماذا لم يهاجمنى الجاثوم أو يهاجم الأب أو يهاجم الشابين ؟ لأن تماثيل غرفاتنا كانت تحوى التعويذة اللاتينية ..

تقدمت خطوتين للأمام ..

واختلست نظرة إلى جثمان (إيناس) ..

كان هذا الجسد يفيض بالحياة منذ ربع ساعة أو أكثر قليلاً .. وكان يهيم بى حبًا .. والآن فرغت الحياة منه كلعبة أطفال تلفت بطاريتها .. لماذا ؟ لماذا ؟ ولأى غرض عبثى فعل ذلك ؟

ـ « لماذا أيها الوغد ؟ »

وهويت بالمشعل على أطرافه .. فتراجع ..

ـ « لماذا أيها الشيطان ؟ »

ودفنت المشعل فى مكان الوجه .. وشممت الشياط المميز ..

ـ « لماذا يا كتلة الشر القذرة ؟ »

الوحش القادم من كتب السحر المغولية ـ لو كان للمغول كتب ـ يتراجع إلى الوراء .. لكن ليحسن الوثبة بالتأكيد ..

كان الباب ورائى .. الباب الذى يقود إلى الهاوية ، التى تلتهب الحمم فى قاعها .. أتراها موجودة هنا أيضًا ؟ هذا مستحيل جيولوجيًا على قدر علمى .. لسنا فى منطقة بركانية .. لكن هذا الباب يفضى إلى شىء ما .. ويمكن أن أجعله ينزلق عبره ليهوى إلى ما لا نهاية ..

إنها الحيلة المعروفة : أقف على حافة الهاوية وأغريه بالانقضاض ، ثم أتنحى جانبًا ليسقط هو من علٍ ..

هرعت إلى الباب والمشعل فى يدى ..

فتحته .. لكنه لم يكن سوى خزانة كتب .. ثلاثة كتب غليظة تساقطت على الأرض .. وبعض عظام متآكلة نخرة .. وشموع .. ورائحة عطن لا يمكن وصفها ..

كان هذا حين ثار الشىء من جديد .. وقرر أن يهجم ..



الوحش القادم من كتب السحر المغولية .. لو كان للمغول كتب .. يتراجع إلى الوراء ..

وثبت إلى الوراء .. ورحت أحاوره عبر هذه المساحة الواسعة .. وأنا أدرك أن اللعبة

(لا توجد فئران هنا .. هذا غير معتاد !)

لن تطول كثيرًا .. هذا الشطرنج قليل الخانات حقًا ..

ولم أجد سبيلاً لإطالة الوقت سوى الإمساك برقيقة النحاس من جديد ، وبصوت جهورى هتفت :

- « كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس ! »

كان هذا كافيًا لتقليل حماس الشيء قليلاً ..

وعاد من جديد يجول فى ظلال القبو .. كأنما يستجمع قواه من أجل الهجمة التالية .....

من المستحيل قتله .. ولو حدثت المعجزة وفررت من هنا فهو حرّ .. ولسوف يجدنى حيثما كنت من خلال كوابيسى ....

يجب إنهاء الأمر هنا .. وحالاً ....

تمددت على الأرض فى استسلام جوار الجدار الرطب .. أغمضت عينىّ .. لن يكون عليه سوى أن يجثم فوق أنفاسى حتى أختنق .. سأتخيل أننى طفل رضيع نسيت أمه الوسادة فوق رأسه الدقيق ..

وهنا وجدت أحد الكتب جوارى ..

أحد الكتب التى سقطت من الخزانة ..

كانت صفحاته مفتوحة .. صفحات من الرقّ (شىء ما حدثنى أنه جلد الموتى المدبوغ) وقد امتلأ بكتابة لا عهد لى بها ..

إنه كتاب سحر .. أقسم على هذا ...

والرسوم التى فيه .. رسوم أقرب لكتب التشريح الصينية الغابرة .. والتى نراها كلما تحدث أحدهم عن الإبر الصينية ..

إنه يشرح فنون (النكرومانسى) .. هذا مؤكد ....

وهنا التمعت الفكرة فى ذهنى ...

ماذا لو أننا ـ على سبيل التجربة ـ أضرمنا النار فى هذه الكتب اللعينة ؟ إن المشعل جوارى ..

ليس علىّ سوى أن أقربه من الصفحات ....

هو ذا دخان أخضر كريه الرائحة ينبعث منها ، والصفحات تتجعد .. رائحة الشواء التى تؤكد لى من جديد أن هذا جلد بشرى مدبوغ لا صفحات ورقية ..

ومددت يدى لألقى فى اللهيب بكتاب ثان .. فثالث ...

دع هذا القبح ينته بأى ثمن ...

ونظرت إلى الوراء فى تشفٍ لأرمق الجاثوم ..

لكنه لم يبدُ قلقًا بشكل خاص .. وهذا ما أثار قلقى أنا ..

نظرت إلى الوراء من جديد ، فوجدت مشهدًا لا يسهل نسيانه .. لقد عادت الكتب لحالتها الأولى دون أية مشاكل ! لا ورقة واحدة محترقة .. ولا ذرة رماد تلوّث أية صفحة ..

الأمر واضح ولا يتطلب عالمًا فى الفيزياء النووية .. هذا الكتاب اللعين باقٍ للأبد .. لا توجد طريقة لتدميره ..

ومن الواضح أن الجاثوم باقٍ معه ....

* * *

الخاتمة كما حكاها (هـ)

ونظرت إلى الوراء .. إلى الظلال التى ذاب الجاثوم فيها ، لكنه ظلّ هناك مصدرًا لذلك الأزيز الرهيب الرتيب ..

اتجهت من جديد إلى الخزانة التى كانت الكتب فيها .. ثمة شىء ليس على ما يرام فى هذا الجدار .. إن فيه مقبضًا نحت فى الصخر كمقبض الباب .. أى أن ظهر الخزانة هو ذاته باب .. باب يفضى إلى ماذا ؟

الجاثوم يتحرك من جديد ..

* * *

كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس ..

* * *

الجنود يطلقون الرصاص .. صوت الدوىّ يصم الآذان .. والكلّ يحاول الفرار .. لكن الأبواب مغلقة .. مغلقة .. خاننا (محمد علىّ) إذن !

تصطدم الطلقات بالقرميد والحجارة ، فيتناثر الغبار فى كل مكان .. وأجساد عديدة تهوى تحت الأقدام ..

رصاصة ! آى ! رصاصة ! آى ..

مملوكى يحاول التعلق بالبوابة .. عملاق هو .. ضخم كدُب .. لكن جسده يتلوى ألمًا وتتخلى يداه عن التشبث .. ويسقط فوق رفاقه ..

رصاصة ! إنك تموت .. كلا .. لن يكون هذا .. ليس بهذه البساطة .. إن (كتخدا طومان) لن يموت بهذه الطريقة ولا طريقة أخرى ..

* * *

بعد ما رددت العبارة من جديد ؛ تراجع الجاثوم للوراء بضع خطوات .. كان ذهنى ينبض فى جنون .. أحداث المذبحة وصهيل الخيل ، وقراع سيوف المماليك وهم يلوحون بها محاولين تحطيم البوابة .. كل هذا فى ذهنى الآن .. أنا قرأت عن المذبحة مرارًا .. لكنى لم أتوغل فيها إلى هذا الحدّ قط ..

وفى ذعر أدركت أننى لست من يفكر الآن ..

إنها خلايا (طومان) الحية فى مخى تفكر !

فتحت الباب الجدارى فى مشقة .. وقبل أن أبدأ العمل كنت أعرف جيدًا أن ما وراء الباب هاوية سحيقة مظلمة .. الهاوية التى رأيتها فى نومى مرارًا ..

دلفت عبر فرجة الباب إلى الخارج .. كان هناك إفريز واه جوار الجدار .. لكنى استطعت أن أثبت قدمى عليه .. ثم فردت ذراعىّ لأجعل منهما ممصات كممصات العناكب كي يزداد جسدى التصاقًا بالجدار ..

ورحت ـ فى عسر ـ أبتعد عن فتحة الباب ، ووجهى يحتك بالحائط الرطب عطن الرائحة .. والهاوية تفتح فاها فى نهم تحت قدمىّ ......

لن يلبث الجاثوم أن يلحق بى ..

لكنه يملك جسدًا ضخمًا غبيًا .. وبالتأكيد لن يتوقف فى الوقت المناسب مثلى ..

* * *

كان المكان مخيفًا .. مخيفًا حتى بالنسبة لى .. أنا (كتخدا طومان) ..

ورحت ـ فى هلع ـ أتأمل جسد الفلاح المسجّى على المنضدة الحجرية ، فى ضوء المشاعل الخافت ..

لكن أبى قال وهو يرتدى عباءته السوداء .. ويسدلها على وجهه :

ـ « هذا هو سرّنا يا بنى .. وسرّ قوتنا .. السرّ الذى تعلمناه من المغول .. وبه امتلكنا حكمة الدهر كله .. »

قلت وأنا أرتجف :

ـ « مـ .. ما هو هذا السرّ ؟ »

ـ « إنه السرّ الذى يعلمك أسرار الموتى جميعًا .. كل ما سمعوه ستسمعه .. كل ما قالوه ستقوله .. كل ما شمّوه ستشمه .. كل ما أكلوه ستذوقه .. كل ما فكروا فيه ستعرفه .. »

ومدّ يده يتناول سكينًا غريبة الشكل .. ويدنو من الجثة قائلاً :

ـ « والآن سأريك كيف ! »

* * *

وشعرت بالجسد الضخم يدنو من فرجة الباب ..

للحظة توارى ضوء المشعل القادم من الخارج ..

وتعالى صوت الأزيز .. ثم ..

تعالى الأزيز أكثر فأكثر ..

وحدث ما توقعته تمامًا .. هوى الجسد من أعلى .. لم أر شيئًا بفضل الظلام .. لكنى شعرت بتفريغ الهواء الهائل يوشك أن يجذبنى معه لأسفل ..

ومرت خمس دقائق كاملة ـ أم لعلى حسبتها كذلك ـ ثم علا صوت اصطدام الجسد الهائل بقاع الهاوية ..

بعدها ساد الصمت والظلام ..

وتنهدت الصعداء .. لقد ولى الجاثوم إلى غير رجعة .. وعدت حرًا ..

حرًا ؟

* * *

كم من ليلة قضيتها جوار أبى .. أمسك الكتب التى تحكى تفاصيل هذا العلم الرهيب .. وأردد عبارات السحر المكتوبة بلسان مغولى قديم .. لم يكن المغول يكتبون ؛ لكن سحرتهم كانوا يدونون طقوسهم بدقة ..

أما أبى فكان يواصل مهمته الرهيبة ..

وجاء اليوم الذى ناولنى فيه السكين ، وطلب منى أن أبدأ ..

و .. بدأت ......

* * *

حين عدت ـ فى حذر ـ إلى الباب لأجتازه عائدًا إلى القبو .. كان لى عقلان .. عقلى الحاضر .. عقل (هـ) الذى يعى اللحظة بكل دقائقها .. وعقل (طومان) وعقل أبيه وعقل جده ..

عقل يفكر بمعايير الطائرات والصواريخ والتلفزيون .. وعقل يفكر بمعايير الجياد والسيوف والوالى والعمامة

والعباءة .. وكلاهما يقظ يواجه الأمور فى تنبه تامّ ..

لكنى تخلصت من الجاثوم اللعين .. لم يعد أمامى سوى .. لحظة !

كان الوغد واقفًا هناك بانتظارى !

داخل القبو .. هو ذاته .. بضخامته .. بصوت أزيزه الرتيب ..

إنه كابوس !

لمَ لا ؟ أليس الجاثوم كابوسًا ماديًا ؟

إنه لم يمت حين سقط فى الهاوية .. بل وعاد من حيث لا أدرى إلى ذات المكان .. شىء طبيعى جدًا .. أليس جاثومًا ؟ أليس خارقًا لكل ما اتفق عليه علماء الفيزياء والجغرافيا ؟

* * *

ـ « الجاثوم ـ أى بنىّ ـ هو خادمك المطيع ، وهو من يعدّ للأمر عدته ، ويخنق أعداءك وهم نيام .. فلا تهبه .. »

ثم هزّ أبى إصبعًا منذرًا فى وجهى .. وقال :

ـ « إن فن استجواب الموتى فرض على كل من سمع عنه .. لا يمكنك الرفض ولا التنصل من الآن

فصاعدًا .. وإلا وجدك الجاثوم وأفناك فى نومك مثلما أفنى مئات من قبلك .. »

ووضع يده على كتفى .. لم أر عينيه وراء الرداء لكنى شعرت بهما :

ـ « لا تتوان لحظة عن توريث هذا الفن لأبنائك وأبناء أبنائك .. »

كان الجاثوم يتحرك فى ركن القاعة المظلم .. وعرفت أن القبول هو اختيارى الوحيد ..

* * *

نعم .. القبول هو اختيارى الوحيد ..

الآن فقط أعرف أن السبيل الوحيد للخلاص من الجاثوم هو أن أكون فى صفه .. وأن أفى بالعهد الذى قطعه جدى منذ دهور ..

عندئذ يعود الجاثوم خادمي .. وأسحق أعدائى جميعًا ..

وفى هذه اللحظة تذكرت كل شىء عن فن (النكرومانسى) .. فجأة لم يعد الأمر غامضًا .. كأننى كنت أمارسه أمس فحسب ..

مددت يدى للكتاب الأول وبحثت عن صفحة الطقوس ..

* * *

هو ذا المشعل يرمى ظلاله على القبو .. صوتى الرتيب يتردد في أرجاء المكان .. وأزيز الجاثوم فى الظلّ يتردد معلنا عن رضاه التام ..

واتجهت إلى جثة (إيناس) .. ورفعت السكين ..

الخطوة الأولى هى أن ......

* * *

إنه الفجر ....

لقد انتهت ساعة الذئب ...

كنت أنا قد تخلصت من آخر الأشلاء .. رميتها فى الهاوية ثم أغلقت الباب وحشرت الكتب حشرًا فى طيات ثيابى .. إن العظام الآن فى هاوية فى قاع قبو فى قاع قصر .. لن يجدها أحد أبدًا ..

ومررت جوار الجاثوم دون أن أنظر له .. وغادرت القبو ..

والغريب أن الحياة لم تعد بهذا الغموض السابق ..

إن لى هدفًا .. ولى خطة محددة لمواجهة الغد ..

كل ما أريده هو بيت منعزل .. بيت له قبو .. بيت يصلح لممارسة (النكرومانسى) .. الفن الذى تعلمته منذ ساعة ، وأتقنته كأنما أمارسه منذ عشر سنوات .. منذ عشرة قرون .. منذ خلق الكون ..

وماذا عن موتى ؟ من يرث هذا الفن بعدى ؟ من يرث الجاثوم ؟ من يدرى ؟ إننى أنقب فى تاريخ الأمم كلها .. ويومًا ما ستعلمنى جثة ما طريقة للتغلب على العقم .. طريقة لكى يكون لى ابن يتعلم منى كل شىء .. كل شىء ..

فقط علىَّ أن أواجه أسئلة الشرطة عن (إيناس) .. وعن كل ما حدث فى تلك الليلة .. لن يكون هذا صعبًا .. فوالد (مها) لن يتكلم .. لن يتكلم أحد .. لأن أحدًا لن يصدق .. وسيتم اعتبار (إيناس) واحدة أخرى من اللواتى خرجن ولم يعدن .. وكذا نفس الشىء بخصوص الخدم ..

إن مستقبلاً باهرًا ينتظرنى ..

صدقنى يا دكتور (رفعت) .....

* * *

خاتمة

د. رفعت اسماعيل

كان الأجدر أن أسمى هذه الأسطورة باسم (أسطورة ساعة الذئب) - وهو اسم جميل يغرى باستعماله يومًا ما - لكنى لم أرد أن يحسبها القراء أسطورة أخرى عن المذءوبين .....

أعتقد أنها أسطورة مرعبة حقًا .. ولا أخال القارئ يقدر على قول إنها خالية من الرعب .. على الأقل لن يقولها بضمير مستريح تمامًا ..

إن أسطورة الجاثوم لتترك غصة فى الحلق .. خاصة بعد هزيمة بطلها وخضوعه لقدره الشيطانى ، ووفاة (إيناس) الباسلة ..

ثم الحقيقة المفزعة : حقيقة أن الجاثوم ما زال فى هذا العالم .. بل هو - غالبًا - فى مصر فى هذه اللحظة ..

من العسير أن نجد (هـ) .. فهو بالتأكيد يعيش وحيدًا فى بيت منعزل ، والجيران يجدونه غريب

الأطوار .. لكنهم لا يتصورون لحظة حقيقة ما يحدث فى قبو هذا المنزل ليلاً ..

كم من أعدائه ماتوا نياماً إثر كابوس حاد ؟ كم من الجثث اختفت من المقابر دون تفسير ؟ لا أحد يدرى ..

إن الشر قد يمتد أثره إلى ما بعد وفاتك .. وحتى أحفادك يدفعون ثمن الآثام التى اقترفتها أنت .. لأنهم يرثون جريمتك ..

ما هو الدرس المستفاد من هذه الحكاية ؟

لا أدرى .. أنا لا أومن بأن القصة يجب أن تحوى فى طياتها موعظة ما .. وإلا كان المقال أكثر فعالية ..

لكن - ما دمتم تصرون - سأحاول :

١ - لا تكن مطمئناً إلى أجدادك .. فلربما كان أحدهم من (أرمينيا) !

٢ - إن (النكرومانسى) هواية سيئة ..

٣ - لا تصادق الفتاة الحسناء التى تجلس بجوارك فى السينما ..

٤ - لا تقبل دعوة إلى يوم فى الريف إذا كان لك جد مملوكى !

٥ - ليست كل قصة تحوى دروساً مستفادة ..

ومن نافل القول أن أضيف هاهنا ، أننى أفكر أحياناً فى إمكانية أن يرسل لى الأخ (هـ) جاثومه فى منامى كى يمنعنى من الثرثرة .. أليس هذا متوقعاً ؟

والآن يمكننا ترك الجاثوم فى قبوه ، وغلق هذا الكتاب .. لنتحدث الآن عن حلقة الرعب الثالثة ..

إن (شريف السعدنى) مذيع ذكى وعلى قدر غير عادى من الحيوية ، والدليل على هذا أنه اختارنى بالذات لأكون موضوع برنامجه الليلى الرهيب (بعد منتصف الليل) ..

بعد منتصف الليل تحدث أشياء مريبة حقاً ..

لا تتكتم الأمر .. ارفع سماعة الهاتف واطلب رقمنا .. واحك كل شىء ..

ولكن هذه قصة أخرى .

* * *

د. رفعت إسماعيل - القاهرة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الجاثوم

إنه نداء عبر الأجيال ..
عبر الأزمان .. عبر الآباد .. يدعوك
إلى أن تكون هنا .. والكابوس الذى
كانت أوصالك ترتجف منه صار حقًا ..
إنها قصة شنيعة عن الكوابيس، وهواة
تعذيب الموتى، والبقاء وحيدًا فى قصر
فسيح مظلم يجول فيه كيان مريع ..
إنها قصة عن الخوف حين
يصير ملكًا ....

الثمن فى مصر ١٥٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة

العدد القادم :
أسطورة بعد منتصف الليل